جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

من هدى

القرآن الكريم

تفسير بلاغي لسورة "المؤمنون"

للدكتور
بسيوني عبد الفتاح فيود
المدرس بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون ٩٠٧٣٧٩
س. ت ١١٩٩٧٠



تقـــديم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين. والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين . نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن تمسك بهديه ونهج نهجه وسلك طريقه ومضى على سنته إلى يوم الدين ..

أما بعـــد :

فالقرآن الكريم هو حبـــل الله المتين وصراطه المستقيم ونوره المبين « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ » . . « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً » . . هو الذى لاتزيغ به الأهواء ولاتلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولايخلق على كثرة الرد .. إنه روح من أمر الله ، به تحيا القلوب « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ . . » .

وكثيرا ما أوصانا حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم بحفظ القرآن وتأمله وتفقه أساليبه وتدبر أحكامه يقول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ويقول : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » ويقول : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » ويقول : « تعاهدوا

هذا القرآن فو الذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها » ويقول : « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ..

وهــــذا تفسير بلاغى لسورة من سور القرآن الكريم وهى سورة « المؤمنون » ، عرضنا فيها لشرح ألفاظ السورة الكريمة وإبراز معانيها اللغوية والشرعية ، كما عرضنا لأوجه الإعراب المختلفة وللأسرار والمزايا البلاغية التى تكمن وراء العبارات والتراكيب ، ولم ننس أن نعرض لتجلية وإيضاح المعانى العامة للآيات الكريمة ، فالله عز وجل نسأل أن ينتفع بهذه الدراسة طلبة العلم وأن يزدادوا بها تأملا وتدبرا لآى الذكر الحكيم ، كما نسأله وهو خير مسئول أن يفقهنا فى الدين ، ويعلمنا التأويل ، ويرزقنا فهما صحيحا لكتابه الكريم وتأملا واعيا دقيقا لآياته الحكيمة ، ونعوذ به تعالى من الزلل حول كتابه وأن يجرى القلم بلفظ لا يليق أو بذكر معنى لم يرده تبارك وتعالى ولم يرضه .. اللهم ارزقنا صواب الرأى والقول الرشيد وحسن التعبير ، إنك سميع مجيب وأنت نعم المولى ونعم النصير ، واجزنا يارب خير الجزاء ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، واهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

د/ بسيونى عبد الفتاح فيود

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة «المؤمنون» من السور التي نزلت بمكة بلا خلاف، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما، واستثنى منها كما فى الإتقان من قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ» إلى وقوله عز وجل: «حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» وقد استشكل الحكم على ما جاء فيها عن الزكاة: لأن الزكاة فرضت بالمدينة فى السنة الثانية من الهجرة، وأجيب بأن أصل الزكاة كان واجبا بمكة قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية: «وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ»[1] ثم فرضت بالمدينة وبينت أنصبتها..

ومما جاء فى بيان فضل هذه السورة الكريمة ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «كان إذا نزل على رسول الله - صل الله عليه وسلم - الوحى نسمع عند وجهه كدوى النحل، فأنزل عليه يوما فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» حتى ختم العشر». أما عن مناسبتها لما قبلها فترجع إلى أنه تبارك وتعالى خاطب المؤمنين فى آخر سورة الحج بقوله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» وقوله تبارك وتعالى: «فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ»، فناسب ذلك

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤١.

أن يعلوه ما يحقق فلاحهم وفوزهم فقال عز من قائل : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

اللغة والإعراب : قد : حرف يدل على ثبوت أمر متوقع وتحققه ، فهى نقيضة « لما » ، إذ هى تثبت المتوقع وتحققه ، ولما تنفيه ، تقول : قد نجح الجد ، وتقول : لما ينجح ، فتثبت وتحقق بقد نجاحه المتوقع ، وتنفيه بلما ، والأمر المتوقع فى الآية الكريمة هو الفلاح الذى دخلت قد على فعله ، ولاشك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهى الإخبار بثبات الفلاح لهم ، فخوطبوا بما دل على ثبات وتحقيق ما توقعوه .. وتردقد فى اللغة على خمسة معان:

١ — دخولها على الأمر المتوقع فتفيد ثبوته وتحققه ، كما فى الآية وكقولك: قد يعود الغائب اليوم ، قد ينجح المجتهد ، وقول المؤذن : قد قامت الصلاة ..

٢ — تقريب الماضى من الحال ، تقول : قام زيد فيحتمل الماضى القريب والماضى البعيد ، فإن قلت : قد قام، اختص بالقريب ..

٣ — التقليل وهو نوعان : تقليل وقوع الفعل نحو : قد يصدق الكذوب وقد يجود البخيل ، وتقليل متعلقه كقوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ »[1] وقوله عز وجل : « قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ .. »[2] أى : ما أنتم

(١) سورة النور الآية ٦٤ . (٢) سورة الأحزاب الآية ١٨ .

عليه ، وما يصنعه المعوقون أقل معلوماته سبحانه وتعالى ، ورأى البعض أنها في الأمثلة للتحقيق ، وهذا واضح في الآيتين ، أما في المثالين فالتقليل لم يستفد من قد ، بل من قولك : البخيل يجود ، والكذوب يصدق ، فإنه إن لم يحمل على أن صدور ذلك منهما قليل كان فاسدا ..

٤ — التكثير .. كما في قول الهذلي :

قد أترك القرن مصفرا أنامله ... كأن أثوابه مجت بفرصاد

فهو يفخر بأن ذلك يقع منه كثيرا ، والقرن بكسر القاف : الكفء والنظير في الشجاعة والحرب ، ومجت بفرصاد أي : رميت بالحمرة ، كناية عن شدة اصفراره ، الناجم عن خوفه من ملاقاة الشاعر ومنازلته ..

٥ — التحقيق كما في قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »[1] ، وقوله عز وجل : **« قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ »[2] فقد مضى أن** بعضهم يحمله على التحقيق ، ولم يرتض معنى التقليل[3] ..

ويجوز أن تكون جملة : « قد أفلح المؤمنون » جواب قسم محذوف والتقدير : والله لقد أفلح ، **وقد ذكر الزجاج في قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » أنه** جواب القسم المذكور قبله بتقدير اللام ..

أفلح : دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة ، يقال أفلحه : أصاره إلى الفلاح ، وقرئ : « أفلح » بالبناء للمفعول ، و « أفلحوا » على لغة « أكلوني البراغيث » أو على الإيضاح بعد الإبهام ، و « أفلح » بحذف الواو والاجتزاء عنها بالضمة ، ومنه قول القائل :

فلو أن الأطبا كان حولي ... وكان مع الأطباء الأساة

---

(١) سورة الشمس الآية ٩ – ١٠ . (٢) سورة النور الآية ٦٤

(٣) ارجع إلى هذه المعاني في مغني اللبيب ج ١ ص ١٧١ وما بعدها .

والفلح بفتح اللام والفلاح : الفوز والنجاة والبقاء فى النعيم والخير ، قال الأزهرى : وإنما قيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد ، وفلاح الدهر : بقاؤه .. قال الشاعر :

ولكن ليس فى الدنيا فلاح

أى : بقاء ، ويطلق الفلاح على السحور لبقاء غنائه ، والفلح بالسكون : الشق والقطع ، يقال : فلح الشيء يفلحه فلحا : شقه وقطعه ، قال الشاعر :

قد علمت خيلك أنى الصحصح   إن الحديد بالحديد يفلح

وسمى الفلاح فلاحا لأنه يفلح الأرض أى : يشقها ، والفلاحة : الحراثة ويقال : رجل أفلح وامرأة فلحاء من الفلح وهو تشقق فى الشفة وضخم واسترخاء ، وفى حديث كعب : المرأة إذا غاب عنها زوجها تفلحت وتركت الزينة ، أى : تشققت وتقشفت ، وفلح تفليحا أى : مكر واستهزأ قال أعرابى : « قد فلحوا به » أى : مكروا به ..

والمؤمن : المصدق ، فالإيمان : إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم : واعتقاده وتصديقه بالقلب ، فمن كان على هذه الصفة، فهو مؤمن مسلم، غير مرتاب ولا شاك ، وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه ، لايدخله فى ذلك ريب ، وقد اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم، أن الإيمان معناه : التصديق قال تعالى . « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ »[1] قالوا : وهذا موضع يحتاج الناس إلى تفهمه ، وأين ينفصل المؤمن من المسلم وأين يستويان ، فالإسلام : إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه يحقن الدم فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤ .

الإيمان الذي يقال للموصوف به هو مؤمن مسلم، قال تعالى : « **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** »[1] ، فالمؤمن مبطن التصديق مثل ما يظهر ، والمسلم التام الإسلام مظهر الطاعة مؤمن بها والمسلم الذي أظهر الإسلام تعوذا غير مؤمن في الحقيقة ، إلا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين ، والمسلم الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر فلم يصدق فهو المنافق ... والمؤمن : من أسماء الله تعالى الذي وحد نفسه بقوله : « **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** »[2] ، وقال تعالى : « **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ** . . »[3] ومعنى المؤمن : الذي آمن الخلق من ظلمه ، وقيل : الذي آمن أولياءه عذابه ، وقيل الذي يصدق عباده ماوعدهم ، فالفعل « آمن » يتعدى بالباء أو باللام أو بنفسه ، يتعدى بالباء إذا قصد التصديق بالله وبرسوله وبما أنزل، التصديق الذي هو نقيض الكفر تقول : آمنت بالله وبرسوله وآمنت بالغيب ومنه قوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** »[4] ويتعدى باللام إذا قصد السماع والتسليم بما يقال . وتصديق قائله ، تقول : آمنت لك أي : سمعت وسلمت بما تقول وصدقته ، ومن ذلك قوله تعالى : « **وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** »[5] ، وقوله عز وجل : « **فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ** »[6]. وقوله جلا وعلا : « **أَنُؤْمِنُ لَكَ**

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٥ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٦٣ .
(٣) سورة الحشر الآية ٢٣ .
(٤) سورة الأنعام الآيه ١٣٦ .
(٥) سورة يوسف الآية ١٧ .
(٦) سورة يونس الآية ٨٣ .

وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ »[١]، وقوله عز قائلا : « قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ »[٢] ، وقد اجتمع التعدى بالباء واللام فى قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ . »[٣] . .

يقول الزمخشرى : « فإن قلت لم عدى فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام ؟ ، قلت : لأنه قصد التصديق بالله الذى هو نقيض الكفر به فعـــدى بالباء ، وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده فعدى باللام .. »[٤] ويتعدى بنفسه إذا قصد تحقيق الأمن والأمان كقولك : آمن الله عباده ، أى : جعلهم فى أمان ، ومنه قول الشاعر :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

والمعنى : والله الذى آمن الطير الملتجئة للحرم، والساكنة فيه، من الاصطياد والأخذ .. وقد يتعدى بعلى كما فى الحديث : « ما من نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى » ، أى : آمنوا عند معاينة ما آتاهم من الآيات والمعجزات... ولا يخفى عليك ما بين المعانى عندئذ من فروق دقيقة ، تأمل : آمنت بك .. آمنت لك .. آمنتك .. آمنت عليه ، وتدبر ما بين هذه التعبيرات من فروق ..

الصلاة : قال أهل اللغة فى الصلاة إنها من الصلوين وهما مكتنفا الذنب من الناقة وغيرها ، وأول موصل الفخذين من الإنسان ، فكأنهما فى الحقيقة مكتنفا العصعص ، والصلاة فى اللغة معناها الدعاء ، وهى اسم يوضع موضع المصدر ، يقال : صلى صلاة ولا يقال صلى تصلية ، والصلاة فى الشرع : أقوال وأفعال

---

(١) سورة الشعراء الآية ١١١ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٤٩ .
(٣) سورة التوبة الآية ٦١ .
(٤) الكشاف ج ٢ ص ١٩٩ .

تبدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم، وتطلق الصلاة على الركوع وعلى السجود والقيام والذكر والتسبيح والاستغفار وكلها إطلاقات مجازية، والصلاة من الله تعالى الرحمة وحسن الثناء والتكريم والتعظيم ، ومن الملائكة دعاء واستغفار ، ومن الطير والدواب والجبال والجمادات : التسبيح ، وصلوات اليهود والنصارى بيعهم وكنائسهم ، ويقال : صلوت الظهر بفتح الظاء : ضربت صلاه ، والصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع ، وقيل ما انحدر من الوركين .. وقد اختلف فى إطلاق الصلاة على غير النبى صلى الله عليه وسلم ، فقيل لا يصح لأنه خاص له ولا يقال لغيره ، قال تعالى : « **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** »(١) ، وقيل - وهذا القول هو الراجح - إن الصلاة التى بمعنى التعظيم والتكريم ، لا تقال لغيره ، والتى بمعنى الدعاء والتبريك ، تقال له ولغيره ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم صل على آل أبى أوفى » أى ترحم عليهم وبرك لهم ، وقال تعالى : « **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** »(٢) . أى : ادع لهم واستغفر لهم ، وقال عز قائلا : « **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** »(٣) أى : يرحمكم وملائكته يستغفرون لكم، فصلاة الله رحمة ورأفة ، وصلاة الملائكة استغفار ودعاء ...

والخشوع فى الصلاة : خشية القلب وإلباد البصر أى: إلزامه موضع السجود، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه كان يصلى رافعا بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده ، وكان الرجل من العلماء إذا قام فى الصلاة

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٦ .
(٢) سورة التوبة الآية ١٠٣ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٣ .

هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء ، أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا ، ومن الخشوع أن يتأدب فيتوقى كف الثوب، والعبث بجسده وثيابه، والالتفات والتمطى والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك والاختصار وتقليب الحصا ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أبصر رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : « لو خشع قلبه خشعت جوارحه » ، ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول : اللهم زوجنى الحور العين ، فقال : بئس الخاطب أنت ، تخطب وأنت تعبث ؟ .. ويقال : خشع الرجل يخشع خشوعا واختشع وتخشع : رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته وانكسر بصره .. وقالوا : الخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع فى البدن وهو الإقرار بالاستخذاء ، والخشوع فى البدن والصوت والبصر .. وخشوع الصوت والجوارح : سكونها قال تعالى : « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا »[1] أى : سكنت

واللغو : مالا يعنيك من قول أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه ، يعنى أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل ، ويقال : لغا فى القول يلغو ويلغى لغوا ، ولغى بالكسر يلغى لغا وملغاة : أخطأ وقال باطلا ، ويطلق اللغو على الإثم قال تعالى : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ »[2] أى : بالإثم فى الحلف إذا كفرتم ، وقيل هو مالا يعتد به لقلته ، أو لخروجه على غير جهة الاعتماد ، ويطلق على الباطل ، وعلى الفاحشة، يقال : كلمة لاغية أى : فاحشة، وفى التنزيل : « لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً »[3] هو على النسب أى : كلمة ذات لغو وهى الكلمة القبيحة أو الفاحشة ، وقال تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا »[4] ، أى : بالباطل .. وقالوا:

---

(١) سورة طه الآية ١٠٨ .
(٢) سورة المائدة الآية ٨٩ .
(٣) سورة الغاشية الآية ١١ .
(٤) سورة الفرقان الآية ٧٢ .

كل الأولاد لغاً أى : لغو إلا أولاد الإبل ، فإنها لا تلغى ، لأنك إذا اشتريت شاة أو وليدة معها ولد ، فهو تبع لها ، لاثمن له مسمى ، إلا أولاد الإبل ..
معرضون : ذاهبون عرضاً ، مبتعدون عنه ، منفصلون متميزون ، اللغو فى واد ، وهم بعيدا عنه فى واد آخر ، يقال : أعرض فلان أى : ذهب عرضا وطولا ، وعرض الشىء أى : أبرزه ، قال تعالى : « وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً »[1] ، أى : أبرزناها حتى نظر إليها الكفار ، ويقال : أعرضت هى أى : ظهرت واستبانت ، قال عمرو بن كلثوم :

فأعرضت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدى مصلتينا

أى : أبدت عرضها ولاحت جبالها للناظر .. وأعرض لك الخير : أمكنك منه ، وأعرض لك الظبى : أمكنك من عرضه ، إذا ولاك عرضه ، وأعرض فى الشىء : تمكن من عرضه ، قال ذو الرمة :

فعال فتى بنى وبنى أبوه فأعرض فى المكارم واستطالا

وأعرض عن الشىء : انفصل عنه وامتاز ، وبرز بعيدا عنه ..

الزكاة : أصل الزكاة فى اللغة : الطهارة والنماء والبركة والمدح وقد استعملت فى القرآن والحديث بكل هذه المعانى قال تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ »[2] أى : لا تمدحوا ، وقال عز وجل : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى »[3] أى : تطهر بالإيمان .. وقال عز قائلا : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا »[4] أى : طهرها من الذنوب وقال على كرم الله وجهه : « المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق » أى : ينمو ويزداد .. وتطلق الزكاة أيضا على الصلاح قال تعالى : « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً .. »[5] أى : صلاحا ، وقال

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٠ .
(٢) سورة النجم آية ٣١ .
(٣) سورة الاعلى آية ١٤ .
(٤) سورة الشمس آية ٩ .
(٥) سورة الكهف آية ٨١ .

تعالى : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ »[1] أى : ما صلح ولكن الله يصلح من يشاء ...

وتطلق الزكاة فى الشرع على المال المخصوص أى القدر المعين الذى حدده الشرع فيخرجه الإنسان من ماله فى زمن محدد ، وقد سمى هذا الجزء زكاة ،لأنه تطهير للمال وتثمير وإصلاح ونماء .. كما تطلق الزكاة على فعل المزكى ، فهى من الأسماء المشتركة بين المخرج والفعل ، فتطلق على المخرج أى : العين وهى الطائفة من المال ، المزكى بها ، وعلى معنى التزكية أى: فعل المزكى .. وقد قيل إن المراد بها فى الآية الكريمة : التزكية أى فعل المزكى ، فهذا مراد الله عز وجل ، إذ جعل المزكين فاعلين للتزكية ، وأما المعنى الثانى للزكاة وهو العين أو القدر المخرج فلا يكون نفسه مفعولا لهم ، وعلى ذلك يكون وصفهم بفعل التزكية دالا على أداء العين بطريق الكناية وقيل المراد بالزكاة فى الآية : العين ويقدر مضاف محذوف والمعنى : والذين هم لأداء الزكاة فاعلون ، أو تضمين « فاعلون » معنى مؤدين ، وقيل المراد بالزكاة : العمل الصالح ، كما فى قوله تعالى : « خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً » ، وقيل المراد بها التطهير ، كما فى قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » ويؤيد هذين القولين الفصل بين الصلاة والزكاة بقوله تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » ، وأيضا كون السورة مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة.. وأرى - والله أعلم بمراده - أن قوله « للزكاة » مفعول لأجله ، والمعنى : والذين هم من أجل الزكاة فاعلون مجدون ، وقد آثر النظم الكريم هذا التعبير حثا على العمل والسعى والكسب ، فالمؤمن يسعى ويكد ليس فقط لكى ينفق على نفسه وعياله ، بل من أجل الزكاة .. من أجل أن يصير غنيا ولديه المال الذى تجب فيه

---

(١) سورة النور آية ٢١ .

الزكاة .. « والذين هم للزكاة فاعلون » أى مجدون مكافحون ، لامتقاعدون متكاسلون ..

والفرج : العورة ، وهو اسم لجمـع سوءات الرجال والنساء والفتيان وما حواليها ، كله فرج ، وكذلك من الدواب ونحوها من الخلق ، ورجل فرج بكسر الراء : لايزال ينكشف فرجه ، فالفرج : الذى يبدو فرجه إذا جلس وينكشف ، والأفرج : عظيم الأليتين لاتكادان تلتقيان .. **والفِرْج بكسر الفاء وسكون الراء : الذى لايكتم السر ، والفَرَج بفتح الفاء والراء** : انكشاف الكرب وذهاب الغم .. ويطلق الفرج بالسكون : على مابين القوائم ومابين اليدين والرجلين ، يقال : جرت الدابة ملء فروجها ، وعلى الخلل بين الشيئين وجمعه فروج ، والفرجة بالضم : انفراج الحائط وما أشبهه ، يقال فرجة الحائط ، وهى اسم ، جمعها : فرجات وفرج وفى حديث صلاة الجماعة : « ولا تذروا فرجات الشيطان » وفى رواية « فرج الشيطان » وهو الخلل الذى يكون بين المصلين فى الصفوف فأضافها إلى الشيطان تفظيعا لشأنها وحملا على الاحتراز منها ، والفرجة بفتح فسكون مصدر ، وهى الراحة من الحزن والمرض والهم .. والزوج : زوج المرأة بعلها ، وزوج الرجل امرأته ، ولم ترد فى القرآن الكريم إلا بالتذكير .. « **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** »(١) .. « **أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ** »(٢) .. « **وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ** »(٣) ، ولذا أباها الأصمعى بالهاء فلا يقال : زوجة ، وأجازها البعض فقال : الرجل زوج المرأة وهى زوجه وزوجته ، ومنه قول الفرزدق :

وإن الذى يسعى يحرش زوجتى
كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩ . (٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .
(٣) سورة النساء آية ٢٠ .

ويطلق الزوج على خلاف الفرد يقال : زوج أو فرد ، قال تعالى : « **وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** »[١] ويقال : هما زوجان للاثنين وهما زوج ، كما يقال : هما سيان وهما سواء ، قال ابن سيدة : الزوج : الفرد الذى له قرين ، والزوج : الاثنان ، ويقال : عندى زوجان من الحمام ، ولا يقال : عندى زوج حمام ، قال تعالى : « **وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ** »[٢] ..

أو ما ملكت أيمانهم : المراد السريات من الإماء اللاتى يتسرى بهن ، والآية خاصة بالرجال ، فإن التسرى للنساء لا يجوز بالإجماع ، فقد ورد أن امرأة تسرت غلاما على عهد عمر رضى الله عنه ، فذكر ذلك له فسألها : ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنت أرى أنه يحل لى ما يحل للرجال من ملك اليمين ، فاستشار عمر فيها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأولت كتاب الله تعالى على غير تأويله فقال رضى الله عنه : لا جرم ، لا أحلك لحر بعده أبدا ، كأنه عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها وأمر العبد ألا يقربها ..

اللوم : العذل ومثله اللوماء واللومى واللائمة ، يقال : لام يلوم لوما وملاما، وألام ولوم ، فلام وألام . بمعنى واحد ولوم شدد للمبالغة ، وألام الرجل : أتى ما يلام عليه ، واستلام الرجل إلى الناس : استذم وأتى إليهم ما يلومونه عليه ، وألام الرجل فهو مليم بضم الميم : أتى ذنبا يلام عليه ، قال تعالى : (**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ**)[٣] ويقال : لام يلوم فهو مَلُوم ومَلِيم بفتح الميم ، كأنهم استثقلوا الواو مع الضمة فعدلوا إلى الياء والكسرة ، أما ألام فيقال فيه : مليم بضم الميم ..

وقوله تعالى : « على أزواجهم » متعلق بمحذوف فى موضع نصب على الحال

---

(١) سورة ق آية ٧ .
(٢) سوره النجم آية ٤٥ .
(٣) سورة الصافات آية ١٤٢ .

أى : إلا والين على أزواجهم أوقوامين عليهن ، من قولك :كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان، ومنه قولهم : فلانة تحت فلان ، ولذا سميت المرأة فراشا ، والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف يدل عليه قوله : « غـــير ملومين » وكأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم ، أى : يلامون على كل مباشرة إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين على مباشرتهن ، ويجوز جعله صلة لحافظين لتضمينه معنى ممسكين ، والإمساك يتعدى بعلى ، كما فى قوله تعـالى : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ »[1] وذهب جمع إلى اعتبار معنى النفى المفهوم من الإمساك ليصح التفريغ ، والمعنى : والذين هم لفروجهم حافظون لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم ، وقيل إن « على » بمعنى «من» كما أن « من » وردت بمعنى « على » فى قوله تعالى : « وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا »[2] أى : نصرناه عليهم، والمعنى : والذين هم لفروجهم حافظون إلا من أزاوجهم أو ما ملكت أيمانهم .. ولا يجوز أن يتعلق بملومين المذكور بعد فى قوله : « فإنهم غير ملومين » لأمرين : وقوعه بعد إن ، وكونه مضافا إليه وما بعد إن لا يعمل فيما قبلها ، وكذا المضاف إليه لا يعمل فيما قبله .. والفاء فى قوله : « فإنهم غيرملومين » للسببية ، فهو تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم من المذكورات ، أى : لأنهم غير ملومين على ترك حفظها منهن .. وقيل الفاء فى جواب شرط مقدر والمعنى : فإن بذلوا فروجهم لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك ..

ابتغى : طلب وأراد ، يقال : بغى الشىء بغوا أى : نظر إليه كيف هو ، والبغو يطلق على ما يخرج من زهرة القتاد الأعظم الحجازى ، وعلى ما يخرج

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .　　(٢) سورة الأنبياء آية ٧٧ .

من زهرة العرفط والسلم ، وعلى الثمر قبل أن ينضج ومفرده : بغوة .. ويقال : بغى الشيء يبغيه : بغاء وبغى أى طلبه وأراده ، وكذلك ابتغى وتبغى واستبغى كل ذلك بمعنى : طلبه وأراده .. ويقال: بغى الخير بغية وبغية بضم الباء وكسرها، وبلغت الأمر من مبغاته ، كما تقول : أتيت الأمر من مأتاته ، تريد المأتى والمبغى ، وفلان ذو بغية وبغاية وبغاء . أى : ذو طلب وذو حاجة .. والبغية : الضالة المبغية ، والباغى الذى يطلب الشيء الضال . جمعه : بغاة وبغيان .. والبغية فى الولد نقيض الرشدة ويقال : بغت الأمة تبغى بغيا ، وباغت مباغاة وبغاء أى : زنت وعهرت ، فهى بغى وبغو، وقيل البغى: الأمة فاجرة كانت أو غير فاجرة، وقيل البغى : الفاجرة حرة كانت أو أمة ، وفى التنزيل « وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا »[1] أى : فاجرة ، ولا يقال : بغية بالتاء..والبغى: التعدى والظلم والفساد ومجاوزة الحد قال تعـالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . »[2]

ونصب « وراء » على أنه مفعول «ابتغى» والمعنى : فمن ابتغى خلاف ذلك ، وقال بعض المحققين إنه ظرف لا يصلح أن يكون مفعولا به ، وإنما هو ساد مسد المفعول به ..

العادون : المجاوزون ما حـــد لهم وأمروا به ، فالعادى : الظالم ، يقال : لا أشمت الله بك عاديك ، أى : عدوك الظالم لك ، وفى الحديث : « ماذئبان عاديان أصابا فريقة غنم » ، فالعادى : الظالم وأصله من تجاوز الحد فى الشيء ، والسبع العادى أى : الظالم الذى يفترس الناس .. ومنه : التعدى والاعتـداء والعدوان أى الظلم ، قال تعالى : « وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »[3]

---

(١) سورة مريم آية ٢٨ .
(٢) سورة الأعراف آية ٣٣ .
(٣) سورة المائدة آية ٢ .

وقال عز وجل : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا .. »[١]
أي : لاتتجاوزوا الحد ، والتعدي: مجاوزة الشيء إلى غيره ..

الأمانة : مصدر أمن والمراد بها في الآية كل ما ائتمن عليه ، إذ الحفظ للعين لا للمعنى ، ولا يقال : إن الذي عينها للعين جمعها ؛ لأن المصادر قد تجمع ، وإنما الذي عينها قوله : « راعون » فالذي يراعي ويحفظ هو العين لا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا »[٢] وقوله عز وجل : « وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ »[٣] ، فالذي يؤدى : الأعيان لا المعاني ، والذي يخان ، المؤتمن عليه ، لا الأمانة نفسها .. وقد جمعت الأمانة دون العهد؛ لأنها متعددة متنوعة، تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان والتكاليف والأعضاء ، وكل ما ائتمنت عليه من قبل الله تعالى أو من قبل العباد ..

والعهد : مصدر أريد به ما عوهدوا عليه كالأمانة ، أي : لم يرد به المعنى المصدري ، ويطلق العهد على الوصية وعلى الحفاظ ورعاية الحرمة ، وعلى الأمان وعلى الالتقاء والمعرفة ، يقال : عهد الشيء عهدا : عرفه .. والمراد في الآية : كل ما عوهد الله عليه ، وكل ما بين العباد من المواثيق ..

والراعي : القائم على الشيء بحفظ وإصلاح ، كراعي الماشية وراعي الرعية ، ويقال : من راعي هذا الشيء؟ أي: متوليه وصاحبه ويطلق الراعي على الوالي ، والرعية على العامة ، وكل من ولي أمر قوم فهو راعيهم وهم رعيته ، ويقال : استرعاه أي : استحفظه ، واسترعيته الشيء فرعاه ، وفي المثل : من استرعى الذئب فقد ظلم ، وراعي النجوم : مراقبها ، والمراعاة : المناظرة والمراقبة والملاحظة ، ويقال : ارعوى فلان عن الجهل يرعوى ارعواء أي : كف عن الشيء ونزع ، وحسن رجوعه ..

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .
(٢) سورة النساء آية ٥٨ .
(٣) سورة الأنفال آية ٢٧ .

والإرث : يقال : ورث فلان فلانا يرثه إرثا وورثا ورثة ووراثة وإراثة ، وورثه ماله ومجده ، وورثه عنه ، وذلك إذا مات المورث فيصير ميراثه لوارثه .. والمراد بالورث فى قوله تعالى : « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا »[1] وقوله عز وجل « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ »[2] ورث النبوة لا المال . لقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ماتركناه فهو صدقة» ... والوارث صفة من صفات الله عز وجل ، فهو الباقى الدائم ، الذى يرث الخلائق ، ويبقى بعد فنائهم ، فالله عز وجل يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، أى : يبقى بعد فناء الكل ، فيرجع ماكان ملك العباد إليه وحده لاشريك له ..

والمراد بالوارثين فى الآية الكريمة : الباقون فى الجنة ، فالجنة تبقى عليهم كما يبقى مال المورث على وارثه ، ولأن المؤمنين يلقون ربهم يوم القيامة ، قد انقضت أعمالهم ، وثمرتها باقية ، وهى الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة ، فقد أورثهم من تقواهم ، كما يورث للوارث المال من المتوفى ، وقيل يرثون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو أطاعوا ..

الفردوس : ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها ، جاء فى الصحيحين : « إذا سألتم الله الجنة ، فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » ، وقد أنث الفردوس على تأويل الجنة أو طبقتها العليا ، وهو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمار ، وروى أن الله عز وجل بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك والأذفر ..

وخالدون : باقون دائمون ، وجملة : « هم فيها خالدون » إما جملة مستأنفة ، مقررة لما قبلها ، وإما حال من فاعل « يرثون » أو من مفعوله ...

---

(١) سورة مريم آية ٥ ، ٦ .   (٢) سورة النمل آية ١٦ .

، فاللغو - كما مر - في المعاني اللغوية - يتسع معناه ويشمل كل ما لا يعنيك من قول أو فعل، ويندرج تحته الباطل والفواحش وكل ما يخالف منهج الإسلام .. فهم عن هذا معرضون، هم

الأغراض والمزايا البلاغية : فى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون » عبر عنه عن الفلاح المستقبل بالماضى ليبرز ثباته ويدل على تحققه وأنه واقع لامحالة ، وقد أكد بقد لهذا الغرض ، وكأنه قيل : قد تحقق أن المؤمنين هم أهل الفلاح فى الآخرة .. وفى قراءة « أفلحوا » إبهام يعقبه الإيضاح والبيان ، وللإيضاح بعد الإبهام وقعه فى الأنفس ، لأن الشيء إذا أبهم تطلعت النفس لمعرفته واشتاقت واستشرفت لإيضاحه وبيانه ، فعندما يأتى البيان والإيضاح يقع فى النفس موقعه ، لأنه جاء والنفس له مهيأة وإليه متطلعة مترقبة .. وقوله تعالى : « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ، استئناف بيانى ، لأنه بمثابة جواب لسؤال أثارته الآية قبل ، وكأن القارىء لقوله : « قد أفلح المؤمنون » ، يثار فى نفسه سؤال : من هم هؤلاء المؤمنون الذين تحقق فلاحهم؟ فيأتى الجواب : « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » .. وفى إيثار هذا التعبير : « صلاتهم » وإضافة الصلاة إليهم معنى دقيق لطيف وهو الدلالة على أن الله غنى عن العالمين ؛ لأن الصلاة دائرة بين المصلى والمصلى له ، فالمصلى هو المنتفع بها وحده ، وهى عدته وذخيرته ، فهى صلاته ، وأما المصلى له فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »[1] .. وتقديم الجار والمجرور فى قوله « والذين هم عن اللغو معرضون » يدل على القصر أى : قصر إعراضهم على اللغو لا يتعداه إلى غيره ، فهم يقبلون على صالح الأعمال وما يقرب إلى الله ولا يعرضون إلا عن اللغو ، وفى إيثار التعبير بالإعراض دون الترك ما يدل على تباعدهم رأسا عن اللغو وأنهم عنه بمنأى ومعزل ، لأن أصله أن يكون فى عرض أى : ناحية غير عرضه .. وأكثر ما تذكر العبادتان : الصلاة والزكاة فى القرآن معا بلا فاصل ، ولكن فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة ، وكأن الله عز وجل لما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك

لأنهم يقبلون على الأعمال الصالحة التي تقرب إلى الله.

من أعمال الخير والبر،

---

(١) سورة فاطر آية ١٥ .

الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف .. أما تقديم الظرف فى قوله « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » فقيل ليقرب ذكر الصلاة من ذكر الإيمان، وقيل : رعاية للفاصلة ، وقيل للتأكيد وتقوية الحكم وشمول الخشوع لكل صلاة ، على معنى : الذين هم فى جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون .. وفى تقديم وصفهم بالخشوع فى الصلاة على سائر مايذكر من الأوصاف ما يدل على التنويه بشأن الخشوع ، فقد ورد أن الخشوع أول مايرفع من الناس ويفقدونه من دينهم .. وفى إيثار التعبير عن هذه الأوصاف بأسماء الفاعلين : خاشعون ، معرضون ، فاعلون ، حافظون راعون ، الوارثون ، مايدل على الثبات والدوام ، وهذا أبلغ من التعبير بالأفعال ، لأن الأفعال تدل على التجدد والحدوث ، فالتعبير بأسماء الفاعلين قد أبرز اتصافهم بتلك الأوصاف فى معرض الثبات والدوام وهذا أقوى فى أداء المعنى وأبلغ .. أما التعبير بالفعل فى قوله: « على صلواتهم يحافظون » ، فلأن المقام قد اقتضى ذلك ، لما فى الصلاة من التجدد والتكرر ، ولذا جمعت هنا وأفردت هناك ، فى أول السورة ... وفى تصدير الأوصاف وختمها بذكر الصلاة، تعظيم لشأنها وإعلاء لمنزلتها ، وتقديم الخشوع للاهتمام ، فإن الصلاة بدونه ليست صلاة ، وقد قالوا : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح .. يقول الزمخشرى : « فإن قلت : كيف كرر ذكر الصلاة أولا وآخرا ؟ قلت : هما ذكران مختلفان فليس بتكرير ، ووصفوا أولا بالخشوع فى صلاتهم وآخرا بالمحافظة عليها ، وذلك ألا يسهوا عنها ويؤدوها فى أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به أوصافها ، وأيضا فقد وحدت أولا ليفاد الخشوع فى جنس الصلاة ، أى صلاة كانت ، وجمعت آخرا لتفاد المحافظة على أعدادها وهى : الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل .. »(١) .

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢٧ .

وفى قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » أوثر التعبير بلفظ « فاعلون » دون « مؤدون » للحث على العمل ، ومضاعفة الجهد ، بالانتشار فى الأرض ، والابتغاء من فضل الله ، فقد أفاد لفظ « فاعلون » وأنبأ بأن المراد هو العمل ، والفعل من أجل الزكاة ، لا مجرد أدائها .. وفى قوله : « والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم » ذكر للخاص بعد العام اعتناء بشأنه ، فإن وصفهم بالإعراض عن اللغو يستدعى وصفهم بالعفة ، ومجىء الخاص بعد العام هنا يحقق غرضين بلاغيين ، أولهما : الاعتناء بشأن الخاص كما قلت ، ثانيهما : تحقيق كمال العفة ، لأن ما تقدم وإن استدعى وصفهم بأصل العفة ، فقد جىء بهذا الخاص لما فيه من الإيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى مالا يخفى ، وأنهم حافظون لها عن استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق وصفهم بكمال العفة .. وفى إيثار التعبير عن الإماء « بما » دون « من » دلالة على أن من جنس العقلاء مايجرى مجرى غير العقلاء وهم الإناث ، لأن أنوثتهن المنبئة بضعفهن وقلة تفكيرهن جعلتهن جاريات مجرى غير العقلاء ، وأيضا لأنهن يشبهن السلع بيعا وشراء..وفى وقوع الأيمان فاعلا الملك فى قوله : « ملكت أيمانهم » ، مايدل على شرف اليمين وتقديمها على الشمال ، فقد استعملت فى موضع العناية والاهتمام ، وأمرنا الإسلام بتقديمها وتشريفها ، اقرأ قول الشاعر :

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى فلا تجعلنى بعدها فى شمالك

واقرأ قول النبى صلى الله عليه وسلم : « يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك .. » جعلنا الله من أهل اليمين .. وفى قوله « فأولئك هم العادون » قصر لصفة التعدى عليهم لاتتعداهم إلى غيرهم ، فهم الكاملون فى العدوان المتناهون فيه ، وفى استخدام اسم الإشارة الموضوع للبعيد « أولئك » مايدل على تحقيرهم وإبعادهم وطردهم من رحمة الله ، وكأنهم ينبغى أن يطردوا عن ساحة الحضور ويبعدوا ، ولايخفى عليك أنه قد روعى لفظ « من » فى قوله : « ابتغى وراء ذلك » ، وروعى معناها فى قوله : « فاولئك هم العادون » .. وفى قوله :

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ذكر للعام بعد الخاص ، لأن حفظهم لفروجهم يدخل فيه ، وكأنه جل وعلا بعـــد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها ، ففيه تنويه بشأن الخاص - كما قلنا - لذكره مرتين مرة مفصلا ومرة مجمـــلا .. وفى قوله : « أولئك هم الوارثون » قصر لصفة الورث عليهم لاتتعداهم إلى غيرهم وتنبيه إلى علو مكانتهم وسمو منزلتهم وذلك باستخدام اسم الإشارة الموضوع للبعيد « أولئك » وقد وقع اسم الإشارة هنا موقعا لطيفا ، لأنه ذكر بعد تلك الأوصاف فأفاد أن المؤمنين الموصوفين بهذه الأوصاف السامية جديرون من أجلها بما يذكر بعد اسم الإشارة من جزاء : « هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس » .. وفى قوله : « الذين يرثون الفردوس » بيان لما يرثون وتوضيح للوراثة بعد إطلاقها تفخيما لهـا وتأكيدا ، فبين الجملتين كال اتصال .. وفى قوله : « الوارثون » استعارة تصريحية تبعية حيث شبه استحقاقهم الجنة بما قدموا من صالح الأعمال بالورث ثم حذف المشبه وطرح وادعى أنه صار فرداً من أفراد المشبه به ودخل فى جنسه ثم اشتق من الورث «الوارثون» بمعنى « المستحقون » على سبيل الاستعارة التبعية ، وتنبيء هذه الاستعارة بأن أولئك المؤمنين قد نالوا تلك المنزلة بما قدموا فهم قد ورثوا ثمرة أعمالهم وجزاء تقواهم فاستحقوا الخلود فى الفردوس : « يرثون الفردوس هم فيها خالدون . » ..

معانى الآيات الكريمة : بدأت السورة الكريمة بالإخبار ، فأخبرت أن المؤمنين قد تحقق فلاحهم وفوزهم بالنعيم وبقاؤهم فى الجنة والخير ، ثم أخذت فى إبراز صفات أولئك المؤمنين ، التى من أجلها استحقوا هذا الفلاح ، ونالوا تلك المنزلة ، وصاروا ورثة الفردوس .. وقد صدرت تلك الصفات بالصلاة وختمت أيضا بها وذلك لتعظيم شأنها ولفت المؤمن إلى أهميتها ومكانتها .. فأول وصف من أوصاف أولئك المفلحين الخشوع فى الصلاه : « الذين هم فى صلاتهم خاشعون » ، يستحضرون عظمة الله ويخافونه ، فتسكن جوارحهم ،

وتقشعر جلودهم ، فلا ينشغلون بغير الصلاة ، يتدبرون ما يقرأون ويكفون عن كل ما ينافى التأدب أمام الله عز وجل ، كالتثاؤب والتمطى وكف الثوب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك وتقليب الحصا والتمايل والالتفات ، وغير ذلك مما يتنافى مع الخشوع والتأدب ، فقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » ورأى رجلا يصلى وهو يعبث بلحيته فقال : « لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » ، وهدد من لايخشعون فى صلاتهم فقال : « لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أولاترجع إليهم » .. فالخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها ، وعندئذ تكون راحة له وقرة عين كما كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو القائل : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » وكان يقول لبلال : « يا بلال أرحنا بالصلاة » .. والوصف الثانى لأولئك الورثة إعراضهم عن اللغو : « والذين هم عن اللغو معرضون » فهم يقبلون على الخير وينشغلون بمواطن الزلفى ، أما اللغو بأنواعه فهم عنه بمعزل ومنأى ، قد تجنبوه وأعرضوا عنه .. والوصف الثالث : تفانيهم فى العمل كما تفانوا فى العبادة ، فالإسلام دين عبادة وعمل ، وأولئك الفائزون لم يتقاعدوا ولم يتكاسلوا بل توكلوا على الله واجتهدوا فى العمل والعبادة ، فلم يعملوا من أجل تحصيل قوتهم وقوت عيالهم فقط ، بل عملوا من أجل الفقراء والمساكين ، عملوا من أجل الزكاة : « والذين هم للزكاة فاعلون » وهذا يدل على مدى حبهم للبذل والعطاء وتنفيذ أوامر الله .. والوصف الرابع : التعفف وحفظ الفرج : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ولايخفى عليك النوعد الشديد لمن ابتغى لفرجه ما وراء ذلك الذى أحله الله ، فقد أحل سبحانه وتعالى أربعا من الحرائر ، وما نشاء من الإماء اللاتى نمتلكهن ، وفى هذا الكفاية فليحفظ الفرج عما عداه ، ولذلك وصف سبحانه وتعالى من ابتغى وراء ذلك بقوله : « فأولئك هم العادون » الكاملون فى العدوان المتناهون فيه ، وقد

استند العلماء إلى هذه الآية الكريمة فى تحريم نكاح المتعة ، لأن المستمتع بها لا يقال لها زوجة ، لانتفاء الغرض من النكاح وهو التوالد والتناسل ، وكذا فى تحريم وطء البهيمة والاستمناء باليد ، فكل هذا داخل فى قوله : « وراء ذلك » ولو كان شيء من ذلك جائزا لما أباح الله للحر نكاح الأمة فى قوله تعالى: « وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ »[1] ولما أمر سبحانه بالتعفف فى قوله : « وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ »[2] وارجع إلى تفصيل ذلك فى كتب الفقه ..

ثم وصف الله تبارك وتعالى أولئك المفلحين بوصفين آخرين : رعاية الأمانات والعهد ، فهم يؤدون الأمانات إلى أهلها ولا يخونون ، والأمانات كثيرة ، فما كلفك الله به أمانة وما أودعه فيك من عقل وسمع وبصر وفرج ولسان وأيد أمانة ، وما استرعاك عليه من أهل وولد أمانة ، وحقوق العباد عليك أمانة وما أودع عندك أو استؤمنت عليه أمانة ، وعلى المؤمن أن يكون قائما على تلك الأمانات وعلى عهده بحفظ وإصلاح ، وألا يفرط فيها ، حتى يكون من أولئك الورثة ، ويكون بنجاة من صفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » ..

والوصف الثانى : المحافظة على الصلوات ، فهم يؤدونها فى أوقاتها ويحافظون على شروطها ، ويتمون ركوعها وسجودها وسائر أركانها ، ولا يتكاسلون عن سننها ونوافلها ، ولفضل الصلاة وعظم شأنها ، فقد صدرت بها ثم ختمت ، تلك الصفات السامية ، صفات أولئك المفلحين الذين استحقوا بها أن يكونوا

---

(١) سورة النساء آية ٢٥ . (٢) سورة النور آية ٣٣ .

الوارثين ، فنعم الورثة ، ونعم الميراث ، إنه الفردوس، الذى قال فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت فى الصحيحين : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » ..

* * *

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ».

اللغة والإعراب : ولقد : اللام واقعة فى جواب قسم محذوف ،والواو : قيل للاستئناف بمعنى القطع ، والجملة بعـــدها مبتدأة ، وقيل عاطفة لجملة من الكلام على جملة أخرى وإن تباينتا فى المعانى ، وهى التى عرفت عند البلاغيين بواو القصة أو واو الاستئناف ..

وخلق : أصل الخلق : التقدير ، تقدير ما منه وجد الإنسان ، أو إيجاده على وفق التقدير ، والخلق فى كلام العرب : ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه ، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه ، فالخلق يطلق على أحد أمرين : الإنشاء والإيجاد على غير مثال ، والتقدير ، ومن صفات الله تعالى الخالق والخلاق ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله عز وجل ، فهو الذى أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة .. والخلقة : الفطرة ، والخليقة: الطبيعة التى خلق عليها الإنسان .. والخلق والخلق بضم اللام وسكونها جمعه ، أخلاق، وهو السجية أو الطبيعة قال تعالى : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »(1)

(1) سورة القلم الآية ٤ .

والخلق بفتح فسكون ، وكذا الاختلاق : الكذب والانتحال ، يقال : هذه قصيدة مخلوقة أى : منحولة إلى غير قائلها ، وقيل فى قوله تعـالى : « إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ »[1] أى : تخرص وكذب .. وخلق الشيء بالفتح خلوقا وخلوقة وخلق بالضم خلاقة وخلق بالكسر وأخلق إخلاقا واخلواق : بلى ، فيقال : خلق الثوب بفتح اللام وضمها وكسرها أى : بلى ، وأخلق الدهر الشيء : أبلاه .. والخلاق بالتخفيف : الحظ والنصيب من الخير والصلاح ، قال تعالى : « وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ »[2] ويقال فلان خليق لكذا أى : جدير به ، وهو خليق له أى : شبيه، وما أخلقه أى : ما أشبهه . والخلوقة بضمتين: الملاسة، والخلوق بفتح الخاء والخلاق بكسرها : ضرب من الطيب ..

والإنسان : المراد به : الجنس أو آدم عليه السلام ، وقيل المراد به : أفراد بنى آدم .. والسلالة : الخلاصة من سللت الشيء من الشيء إذا استخرجته منه ، فهى ما سل من الشيء واستخرج منه ، لأن فعالة بضم الفاء اسم لما يحصل من الفعل ، فتارة تكون مقصودة منه ، كما فى الآية ، فهى الخلاصة ، وتارة تكون غير مقصودة منه ، كالقلامة والكناسة والقمامة .. يقال سللت الشعرة من العجين، والسيف من الغمد فانسل ، ولذا تطلق السلالة على النطفة ، فهى سلالة الإنسان، وعلى الولد فهو سليل أبويه ، وسمى سليلا لأنه خلق من السلالة ، فالسليل : الولد حين يخرج من بطن أمه ، قال الفراء : السلالة الذى سل من كل تربة ، وقيـل : السلالة ما سل من صلب الرجل وترائب المرأة ، كما يسل الشيء سلا، وقيل السلالة : الطين ، إذا عصرته انسل من بين أصابعك فالذى يخرج هـــو السلالة ، وقال بعضهم : السلالة الماء ، والدليل على أنه الماء قوله تعالى : « وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » يعنى آدم « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ » ثم بين معنى السـلالة فقال عز قائلا : « مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »[3] ..

---

(١) سورة ص الآية ٧ . (٢) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .

(٣) سورة السجدة الآية ٧، ٨ .

والأولى عدم التخصيص ـ كما رأى الفراء ـ لأنها بينت مرة بأنها من طين، كما هنا « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » وبينت مرة أخرى بأنها من ماء مهين، كما فى آية السجدة المذكورة، ولذا أرجح أن يكون معنى السلالة : الخلاصة من كل شىء ...

و« من » الأولى فى قوله : «من سلالة» ابتدائية متعلقة بخلق، و« من » الثانية فى قـــوله « من طين » بيانية متعلقة بسلالة على أنها بمعنى مسلولة، أو متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة أى : سلالة كائنة من طين .. وجوز أن يكون « من طين » بدلا أو عطف بيان بإعادة الجار، والمعنى : ولقد خلقنا الإنسان أى : آدم عليه السلام من طين، وعلى اعتبار أن المراد بالإنسان الجنس، يكون خلقه من طين باعتبار خلق أول الأفراد وأصل النوع، وهو آدم عليه السلام، منه، فالكل مخلوق من ذلك خلقا إجماليا فى ضمن خلقه عليه السلام، وقيل خلق الجنس من ذلك باعتبار أنه مبـــدأ بعيد لأفراد الجنس، فإنهم من النطف، الحاصلة من الغذاء، الذى هو سلالة الطين وصفوته، وفيه وصف الجنس بوصف أكثر أفراده، لأن خلق آدم عليه السلام لم يكن كذلك، أو يقال ترك بيان حاله عليه السلام لأنه معلوم، والمراد بالإنسان عندئذ : أفراد بنى آدم، أو الجنس باعتبار أكثر أفراده .. وقيل المراد بالطين : آدم عليه السلام، مجازا مرسلا باعتبار ما كان، والمراد بالسلالة النطفة وبالإنسان : الجنس باعتبار أكثر أفراده والمعنى : ولقد خلقنا أفراد بنى آدم من نطفة منه عليه السلام .. والضمير فى قـــوله : « ثم جعلناه » يعود إلى الإنسان باعتبار أفراده المغايرة لآدم، وإذا أريد بالإنسان أولا آدم، فالضمير عائد على غير مذكور، وجاز لوضوحه وشهرته أو على الإنسان ويقدر مضاف أى : ثم جعلنا نسله، أو أن الأسلوب جار على الاستخدام حيث يراد بالإنسان « آدم » وبالضمير العائد عليه : أفراد بنى آدم الذين تناسلوا منه .. ويجوز أن يعود الضمير على « سلالة » على تأويلها بالمسلول والمعنى ثم صيرنا السلالة نطفة ..

وتعرب «نطفة» مفعولا ثانيا للفعل جعل على أنه بمعنى « صير » فإن كان الضمير عائدا على الإنسان أريد به ماسيصير إنسانا ، وإن عاد إلى السلالة فلا مجاز كما هو واضح .. ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد فتكون : « نطفة » منصوبة بنزع الخافض ، والمعنى : ثم خلقنا الإنسان من نطفة كائنة فى قرار مكين ..

والنطفة : الماء القليل ، وتطلق أيضا على الماء الكثير ، وهى بالقليل أخص ، ولا فعل لها ، وتجمع على نطف ونطاف ، والنطفة أيضا : ماء الرجل ، قالوا إذا أريد بها الماء الصافى تجمع على نطاف ، وإذا أريد بها ماء الرجل تجمع على نطف ، وفى الحديث : « تخيروا لنطفكم » وفى رواية : « لاتجعلوا نطفكم إلا فى طهارة » ..

والعلقة : قطعة الدم الجامدة ، والعلق : الدم العبيط أى : الطرى أو المتجمد ، وقيل الشديد الحمرة ، والمراد : الدم الجامد المتكون من المنى ... والمضغة : القطعة من اللحم قدر مايمضغ الماضغ ، تتكون من العلقة .. والله عز وجل يخلق المضغة متفاوتة ، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو عكس ذلك ويتبع هذا تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم ، وذلك قوله تعالى : « ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ . . »[1] . . والقرار : المستقر وهو فى الأصل مصدر من قر يقر قرارا بمعنى : ثبت ثبوتا ، وأطلق على ذلك مبالغة ، والمراد به الرحم ، وقد وصف بقوله : « مكين » وهو فعيل بمعنى فاعل ، مع أن التمكن وصف ذى المكان ، وهو النطفة هنا ، مبالغة فى حفظها واستقرارها ، وجائز أن يقال : إن الرحم نفسها متمكنة ، ومعنى تمكنها : أنها لاتنفصل لثقل حملها ، أو لاتمج

---

(١) سورة الحج الآية ٥ .

ما فيها، فهو كناية عن جعل النطفة محرزة مصونة ، وهذا معنى قوله : « يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ »[1] ، قلوا : الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة، وقيل : الصلب والرحم والبطن ،وهذا ما يجعل النطفة وما يتلوها من مراحل الخلق مستقرا تمام الاستقرار ، متمكنا غاية التمكن « فى قرار مكين » ..

والخلق الآخر : المباين للخلق الأول مباينة ما أبعدها مباينة ، حيث جعل حيوانا ناطقا سميعا بصيرا ، وأودع كل عضو منه وكل جزء عجائب وغرائب لاتدرك بوصف ولاتبلغ بشرح ، ولله در القائل :

وتزعم أنك جرم صغير　　　وفيك انطوى العالم الأكبر

وقيل : الخلق الآخر الروح ، والمراد بها النفس الناطقة ، والمعنى : أنشانا له أو فيه خلقا آخر . والمتبادر من إنشاء الروح خلقها ، وقيل إنشاؤها : نفخها فى البدن .. وقيل الخلق الآخر : القوى الحساسة .. وقيل غير ذلك ، والراجح القول الأول ..

فتبارك الله : تعالى وتقدس شأنه سبحانه ، فى علمه الشامل ، وقدرته الباهرة ، « وتبارك » فعل ماض لا يتصرف ، والأكثر إسناده إلى غير مؤنث .. وأحسن الخالقين : نعت للاسم الجليل ، وإضافة أفعل التفضيل محضة ، فتفيده تعريفا إذا أضيف إلى المعرفة على الأصح ، وقيل لايجوز أن يكون نعتا، لأنه نكرة وإن أضيف ، ولأن المضاف إليه عوض عن « من » ، فهو إما بدل وإما خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو أحسن الخالقين ، وتميز أفعل محذوف لدلالة الخالقين عليه أى : أحسن الخالقين خلقا ..

---

(١) سورة الزمر الآية ٦ .

والخلق هنا بمعنى : التقدير ، وهو وصف يطلق على غيره تعالى ، كما فى قوله عز قائلا : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى »[1] ..

وقول زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى[2]

ولا يصح تفسيره هنا بالإيجاد، إذلا خالق بذلك المعنى غيره تعالى ... ومعنى حسن خلقه تعالى : إتقانه وإحكامه ، ويجوز أن يراد بالحسن مقابل القبح ، وكل شيء منه عز شأنه حسن لا يتصف بالقبح أصلا من حيث أنه منه تبارك وتعالى ...

الأغراض والمزايا البلاغية : فى قوله : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » على القول بأن المراد بالإنسان الجنس على اعتبار أكثر أنواعه ، وبالسلالة : النطفة ، وبالطين : آدم عليه السلام : يكون فى الإنسان مجاز مرسل علاقته الكلية ، حيث أطلق الكل وأريد جزؤه الأكبر ، وفى « طين » مجاز مرسل آخر علاقته اعتبار ما كان .. وفى قوله : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » أوثر التعبير بثم دون الفاء للدلالة على أن حصوله مما قبله بعيد ، فجعل الاستبعاد عقلا أو رتبة بمنزلة التراخى والبعد الحسى ، لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية مما يستغرب ويستبعد .. وكذا القول فى : « ثم خلقنا النطفة علقة » وفى « ثم أنشأناه خلقا آخر » ، فقد جاءت المعطوفات بعضها بثم وبعضها بالفاء للإشارة إلى تفاوت الاستبعادات ، فالمعطوف بثم مستبعد حصوله مما قبله فنزل الاستبعاد العقلى أو الرتبى منزلة التراخى والبعد الحسى ، أما المعطوف بالفاء فهو ليس يستبعد .. وفى « جعلناه » لون بديعى هو الاستخدام ، وذلك إذا أريد

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٠ .

(٢) تفرى بفتح التاء : تصلح ، ومعنى البيت : أنت تنفذ ما تقدره وتعزم عليه وغيرك يقدر ولا ينفذ ، وهو مثل ، يقال للشجاع : ما يفرى فريه أحد ، بتشديد الياء ..

بالإنسان آدم عليه السلام ، وبالضمير العائد عليه فى « جعلناه » أفراد بنى آدم الذين تناسلوا منه ...فقد استخدم اللفظ بمعنى ، وعاد عليه الضمير بمعنى آخر.. كما فى قول القائل :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وفى قوله : « فى قرار مكين » مجاز عقلى حيث أسند الوصف « مكين » إلى ضمير الرحم وهو للنطفة ، فهو مجاز عقلى علاقته إسناد المبنى للفاعل إلى مكانه ، كما تقول : طريق سائر ونهر جار ، ويجوز أن يكون التمكن وصفا للرحم ، لا للنطفة ، وعندئذ فلا مجاز ...

وفى قوله : « فخلقنا المضغة عظاما» ، قالوا إن معظم المضغة أو أغلبها يخلق عظاما ، وعليه ففيها مجاز مرسل علاقته الكلية ، وقالوا إن المضغة تخلق كلها عظاما وعليه فلا مجاز فى المضغة ، وقد جمعت العظام دون غيرها فى الأطوار ، لأنها متغايرة هيئته وصلابة بخلاف غيرها ، ألا ترى عظم الساق وعظم الأصابع وأطراف الأضلاع والرأس ، وقد قالوا : إن عدة العظام مائتان وثمانية وأربعون عظما .. وفى قوله : « فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم .. » التفاتان ، من الغيبة فى قوله : « أنشأناه » إلى الخطاب فى قوله « إنكم » ، ومن التكلم فى قوله : « أنشأنا » إلى الغيبة فى قوله : « فتبارك الله » . وفى الالتفات الأول تنبيه وإيقاظ وحث على التقوى ، والتزود لما بعد الموت ، فالانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، ينبىء بهذا المعنى ، ويوحى به ، ووراء الالتفات الثانى تكمن معان سامية ، إذ الالتفات إلى الاسم الجليل يفيد تربية المهابة ، وإدخال الروعة ، والإشعار بأن ماذكر من الأفاعيل العجيبة ، من أحكام الألوهية ، وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وجل ، أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به ، إجلالا وإعظاما لشأنه تبارك وتعالى ، ولذا كان العطف بالفاء : « فتبارك الله » ...

ولا يخفى عليك حسن النظم،وجمال الرصف ، ودقة التعبير القرآنى ،حيث تتشابه أطراف آيه ، ويدل صدورها على أعجازها ، ويتجلى ذلك فى هـذه الآية الكريمة ، ولذا ورد أن أكثر من صحابى قد نطق بختام الآية : «فتبارك الله أحسن الخالقين» قبل أن يسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يمليها على كاتب الوحى ويبتسم عليه الصلاة والسلام قائلا : « هكذا نزلت » .. وقوله « فتبارك الله أحسن الخالقين » إطناب بالاعتراض التذييلى ، فهى جملة دعائية دلت على تنزيه الله عز وجل وتعظيمه وتقديس شأنه فى علمه الشامل وقدرته الباهرة ...

وفى قوله : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » نلاحظ أن الإخبار بوقوع الموت قد أكد بإن واللام وبمجيئه اسما « ميتون » ، والإخبار بالبعث لم يؤكد هـذا التأكيد فقد جاء فعلا « تبعثون » وأكدت جملته بإن فقط ، وذلك على الرغم من أن البعث مما يدفع وينكر ، فقد أنكره المشركون ، والموت مما لا ينكره أحد : لأنه حقيقة واقعة مشاهدة ، وقد علل العلماء ذلك بما يلى :

١ ـ الاكتفاء فى شأن البعث بتقدم ما يغنى عن كثرة التأكيد ، حيث تقدم ذكر خلق الإنسان من سلالة من طين ، ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقا آخر يستغرق العجائب ، ويستجمع الغرائب ، وفى ذلك أدل دليل على حكمته،وعظيم قدرته عز وجل ،على بعث الإنسان وإعادته ، وأنه سبحانه لن يهمل أمره ، ويتركه بعد موته نسيا منسيا ، أما تأكيد الموت فإنه لما تضمنت الآية السابقة المبالغة فى أنه تعالى قد أحكم خلق الإنسان وأتقنه ، بولغ هنا فى تأكيد الموت على الرغم من كونه غير منكر ؛ لأن المبالغة فيما سبق تقتضى استبعاد العقل الموت أشد استبعاد ، حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وقد سمع أن الله عز وجل أحكم خلق الإنسان هذا الإحكام ،وأتقنه غاية الإتقان..

٢ - بولغ فى تأكيد الموت لتمادى المخاطبين فى الغفلة ، وإعراضهم عن العمل لما بعد الموت ، فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك ولم يبالغ فى الثانية لوضوح أدلة البعث وسطوع براهينه وأنه لو تؤملت تلك الأدلة وتدبرت تلك البراهين ما أنكر منكر ولا دفع دافع ..

٣ - ويمكن أن يقال : إن شدة كراهة الموت طبعا ، والتى لا يكاد يسلم منها أحد ، نزلت منزلة شدة الإنكار ، فبولغ فى تأكيد الجملة الدالة عليه ، وأما البعث فمن حيث أنه حياة بعد الموت لا تكرهه النفوس ، ومن حيث أنه مظنة للشدائد تكرهه ، فلما لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين أكدت الجملة الدالة عليه تأكيدا واحدا ..

وفى تكرار حرف التراخى « ثم » ما يؤذن بتفاوت المراتب ، وينبىء بتباعد الأزمنة بين خلق الإنسان وموته ، وبين موته وبعثه .. والمقصود الأهم بعد بيان خلق الإنسان وتأهله للتكليف بيان بعثه للحساب والجزاء ، ولكن قدم حديث الموت على حديث البعث ؛ لأنه برزخ بين طوره الذى تأهل به للأعمال والتكليف وبين بعثه للجزاء ، فلابد من قطعه للوصول إلى ذلك ..
لماذا لم تذكر حياة القبر ؟ وهل السكوت عنها فى الآيات يعنى عدم وجودها ؟ : لا يعنى السكوت عن حياة القبر ، أنه لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث ، لأنه ليس فى ذكر الحياتين ما يدل على نفى الثالثة ، وهى حياة القبر ، كما أنك لو ذكرت ثلثى ما عندك ، وطويت ذكر ثلثه ، لم يكن دليلا على أن الثلث ليس عندك ، وأيضا لأن الغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة : الإنشاء والإماتة والإعادة ، والمطوى ذكرها وهى حياة القبر من جنس الإعادة(١) ..

معانى الآيات الكريمة : لما ذكر سبحانه وتعالى فى أول السورة صفات

---

(١) انظر الكشاف جـ ٣ ص ٢٨ .

السعداء المفلحين الفائزين ، وحث عباده على التحلى بها ، ووعدهم الفردوس ، عقبه عز وجل بذكر مبدأ العباد، ومآل أمرهم ، وإبراز قدرته تعالى التى تجلت فى خلق الإنسان ، وإظهار مراحل تكوينه العجيبة البديعة ، فينشأ الإنسان ، ويحيا حياته التى يأتى بعدها الموت ، ثم البعث للحساب والجزاء ،وفى هذا حث للعباد على النظر والتأمل ، فيقبلوا على عبادته ، وشكر نعمته، ويتخلقوا ويتحلوا بالصفات السامية ، التى بدأت بها السورة الكريمة .. ففى هذه الآيات يقسم المولى عز وجل ، أنه خلق الإنسان من سلالة من طين ، أى : خلق آدم عليه السلام من صفوة الماء والتراب ، من خلاصة الطين الذى هو الماء والتراب « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ »(١) خلقه الله من تراب بل فصار طينا ، فلما أنتن صار حمأ مسنونا ، فلما يبس صار صلصالا ، كما أخبرت بذلك الآيات الكريمة :« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ » .. « إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ »(٢) « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ »(٣) ..« خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »(٤) .. ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك » .. ثم خلق تبارك وتعالى ذريته من ماء مهين : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »(٥) .. « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ »(٦) . . . خلقنا سبحانه وتعالى

---

(١) سورة الروم آية ٢٠ .　(٢) سورة ص آية ٧١.
(٣) سورة الحجر آية ٢٦ .　(٤) سورة الرحمن آية ١٤ .
(٥) سورة السجدة آية ٧، ٨ .　(٦) سورة المرسلات آية ٢٠-٢٣

من نطفة وضعت فى قرار مكين ، ثم خلق النطفة علقة أى : دما جامدا ، صير سبحانه وتعالى النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب علقة حمـــراء ، ثم خلق العلقة مضغة ، أى قطعة لحم قدر مايمضغ ، لا استبانة ولا تمايز فيها ، ثم خلق المضغة عظاما ، قيل خلق المضغة كلها عظاما ، ثم كسى عز وجل هذه العظام لحما ، خلقه من دم فى الرحم ، وقيل خلق أغلب المضغة ومعظمها عظاما ، ثم كسى تلك العظام لحما ، من لحم المضغة الذى تبقى بعد خلق العظام ، يمد على العظام حتى يسترها ، وصدق الله العظيم : « يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ »(١).

وفى الصحيحين : « إن أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وهل هو شقى أو سعيد ، فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » .. وفى الصحيحين أيضا : « إن الله وكل بالرحم ملكا فيقول : أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة ، فإذا أراد الله خلقها قال : أى رب ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ قال : فذلك يكتب فى بطن أمه » ، فسبحانك ربى أنت الخالق القادر وتبارك الله أحسن الخالقين .. وقوله سبحانه وتعالى : « ثم أنشأناه خلقا آخر » أى : مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها مباينة ، حيث جعله حيوانا وكان جمادا ، وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم ، وبصيرا وكان أعمى ، وأودع باطنه وظاهره ، بل كل

---

(١) سورة الزمر الآية ٦ .

عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة ، وغرائب حكمة ، لاتدرك بوصف الواصف ، ولا تبلغ بشرح الشارح ، ولله در القائل :

وتزعم أنك جـــرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قالوا : الخلق الآخر : الروح والمراد بها النفس الناطقة والذى يتبادر من إنشاء الروح خلقها ،وظاهر العطف بثم يقتضى حدوثها بعد حدوث البدن وهو قول أكثرهم ، وقيل إنشاؤها نفخها فى البدن أى : جعلها متعلقة به أو سارية فيه ، وإذا أريد بالروح الروح الحيوانية فلا كلام فى حدوثها بعد البدن وسريانها فيه ، وقيل : الخلق الآخر القوى الحساسة ...

وقد احتج أبو حنيفة بهذه الآية على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده ، يضمن البيضة ولا يرد الفرخ ، لأنه خلق آخر سوى البيضة .. وقيل بل يضمن الفرخ باعتباره جزءا من المغصوب ، لا لكونه عينه أو مسمى باسمـــه .. وفى المسألة خلاف يستقصى فى كتب الفقه ...

وتختم الآية الكريمة بتقديس الله سبحانه وتعظيم شأنه : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، روى أن عبد الله بن سعيد بن أبى سرح كان يكتب الوحى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم فأملى عليه : « ولقد خلقنا الإنسان » حتى إذا بلغ عليه الصلاة والسلام : « ثم أنشأناه خلقا آخر » نطق عبد الله بقوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » قبل إمــــلائه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هكذا نزلت » ، فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه ، فأنا نبى يوحى إلى ، وارتد ولحق بمكة ، ثم أسلم بعد الفتح ، وقيل مات كافرا ، وطعن بعضهم فى صحة هذه الرواية بأن السورة مكية ، وارتداده كان بالمدينة ، كما تقتضى الرواية ... ويدفع هذا الطعن بأحد أمرين :

الأول : أن تكون هـــذه الآية مدنية ، ومثلها آية الزكاة ، والآيات

التى ذكرناها فى أول حديثنا عن السورة ، فكون السورة مكية مبنى على الأكثر الغالب ..

الثانى : أن تكون الآية نزلت بمكة ، واستكتبها النبى صلى الله عليه وسلم إياه بالمدينة ، ويؤيد هذا أن هذه الموافقة رويت أيضا عن عمر بن الخطاب ، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنهما ، وليس هنالك مايمنع من أن يكونا قدنطقا بختام الآية عند سماعهما إياها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونطق به عبدالله عندما أملاه الرسول إياها بالمدينة ...

وبعد أن أبرزت الآيات وجلت قدرة الله الباهرة، التى أبدعت خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وعلى هذه الصورة العجيبة التى نطقت بها الآيات ، أكد سبحانه وتعالى أن هذا الإنسان الذى أبدع الله صنعه ، وأحسن خلقه ، سيفنى ويموت ، ثم يبعث للحساب والجزاء : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » وهذا التأكيد تنبيه للإنسان إلى غفلته ، وتذكير له وإيقاظ ، حتى يعمل لما بعد الموت من حساب وجزاء فالله جل جلاله باعثه وسائله ومجازيه عما قدم من عمل إن خيرا فخير وإن شرا فشر « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .. نعوذ بالله تعالى من الغفلة وسوء المنقلب ، ونسأله عز وجل العمل الصالح وحسن العاقبة ..

* * *

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » .

اللغة والإعراب : ولقد : اللام واقعة فى جواب قسم محذوف ، والواو إما واو القصة وإما واو الاستئناف والجملة بعـــدها مشتملة على بيان خلق مايحتاجون إليه بعد بيان خلقهم ـ كما مر فى قوله : « ولقد خلقنا الإنسان ..».. فوقـكم : فى جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم ، لأن تلك النسبة ـ نسبة الفوقية إليهم ـ إنما تعرض بعد خلقهم.. الطرائق : جمع طريقة إما بمعنى مطروقة كذبيحة بمعنى مذبوحة ، وسميت كذلك لأنه طورق بعضها فوق بعض أى : طوبق ، من طرق النعل والخوافى إذا وضع بعضها فوق بعض ، قال الشاعر :

وخيــــل يطابقن بالدارعين طباق الـكلاب يطأن الهراسا(١)

والعرب تسمى كل شىء فوقه مثله طريقة ، قال تعالى : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا »(٢) أى : بعضها فوق بعض من غير مماسة .. وإما جمع طريقة بمعناها المعروف ، وسميت السموات بذلك لأنها طرائق الملائـكة ـ عليهم السلام ـ فى هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد ، وقيل : هى الأفلاك ، لأنها طرائق الـكواكب فيها مسيرها .. وقال ابن عطية : يجوز أن تـكون الطرائق بمعنى المبسوطات، من طرقت الحديد إذا بسطته وهذا لاينافى القول بكرويتها.. وقيل سميت طرائق لأن الله عز وجل أودع فى كل سماء مالم يودعه فى الأخرى ..

والخلق : قالوا : المراد به جميع المخلوقات التى من جملتها السموات السبع ، والمعنى : وما كنا عن الخلق غافلين أى مهملين أمره بل نفيض على كل ما تقتضيه الحـكمة ، فنحفظ السموات أن تسقط على الأرض ومن عليها فتهلـكهم ، ونحفظ الأرض أن تميد بهم ، ونحفظهم أن يهلـكوا بسبب من الأسباب

---

(١) الدارعون : الفرسان قد تدرعوا أى : لبسوا الدروع ، والهراس : حطام الشوك ..

(٢) سورة الملك الآية ٣ .

المستأصلة لهم .. ويجوز أن يراد بالخلق:الناس ، والمعنى : أنا خلقنا السموات لأجل منافعهم، ولسناغافلين عن مصالحهم وما يعيشون به ، «وأل» على الوجهين للاستغراق ، وقيل المراد بالخلق : المخلوق المذكور وهو السموات السبع ، والمعنى : وما كنا عنها غافلين بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها ، و« أل » على هذا القول للعهد ، وإفراد الخلق فى سائر الأوجه ، لأنه مصدر فى الأصل ، ولأن المتعدد عنده تعالى فى حكم الشيء الواحد .. « وأنزلنا من السماء ماء » : أى من جهة العلو أو من السحاب،وقيل السماء بمعناها المعروف ولا يعجز الله تعالى شيء ، وهذا من جملة ما امتن الله سبحانه وتعالى به على خلقه ، والمراد بالماء : ماء المطر ، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك مياه الأنهار النازلة من السماء ، ومياه الآبار والعيون المستخرجة من الأرض ، فإن أصلها من ماء السماء ، وقيل : أراد سبحانه وتعالى فى هذه الآية : الأنهار الأربعة سيحان وتيجان والفرات والنيل ، ولا وجه لهذا التخصيص ، وقيل المراد به الماء العذب دون الملح ، ولا وجه لذلك أيضا ، فليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء ... بقدر : بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزروع والثمار ويسلمون معه من المضرة ، فإنه لو كثر لكان به هلاكهم .. ومثله قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »[١] .. ويعرب الجار والمجرور « بقدر » إما صفة لماء أى : وأنزلنا ماء متلبسا بمقدار ما يكفيهم فى حاجتهم ومصالحهم أو متلبسا بتقدير لائق منا لما ينفعهم ولا يضرهم ، وإما صفة لمصدر محذوف أى : إنزالا متلبسا بذلك، وإما حالا من الضمير فى « أنزلنا » أى. وأنزلناماءمقدرين ما ينفعهم ويصلحهم.. « فأسكناه فى الأرض » : جعلناه مستقرا فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه ، كالماء الذى يثبت ويبقى فى المستنقعات والغدران والينابيع ونحوها ، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ..)[٢]..

---

(١) سورة الحجر آية ٢١ .

(٢) سورة الزمر آية ٢١ .

« على ذهاب به » أى : على إزالته ومحوه بإخراجه عن المائية ، أو بتغويره بحيث يتعذر استخراجه ، أو بأى وجه من وجوه الذهاب به، وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب جل وعلا ، وجملة : « وإنا على ذهاب به لقادرون » فى موضع نصب على الحال من فاعل « أنزلنا » وهو عائد إلى لفظ الجلالة .. « فواكه » تتفكهون بها وتطعمون منها وتتنعمون زيادة على المعتاد من الغذاء الأصلى .. والباء فى قوله « فأنشأنا لكم به » للسببية ، وقيل إنها بمعنى « عند » ، والمعنى : أوجدنا بذلك الماء أوعنده جنات من نخيل وأعناب ، وخص النوعين: النخيل والأعناب ، بالذكر دون غيرهما فى هذه الآية الكريمة ، لكثرة الانتفاع بهما ، ولاسيما فى الحجاز والطائف والمدينة، ولأنهما أشرف الأشجار ثمرة ، وأطيبها منفعة وطعما ولذة .. « ولكم فيها فواكه كثيرة » قالوا المعنى : لكم فى هذه الجنات فواكه من غير العنب والنخيل ، أو لكم فى هذين النوعين خاصة دون غيرهما فواكه كثيرة ؛ لأنهما أنواع مختلفة متفاوتة فى اللون والطعم ...

وقد اختلف الفقهاء فى لفظ الفاكهة علام يطلق، وأحسن ما قيل أنه يطلق على الثمرات التى يأكلها الناس وليست بقوت لهم ولا طعام ولا إدام، والعرف هو الفيصل فى ذلك فقد يعد الشىء فاكهة فى عرف قوم ولا يقال له فاكهة فى عرف آخرين .. و« من » فى قوله : « ومنها تأكلون » ابتدائية ، وقيل إنها تبعيضية ، والضمير يرجع إلى الجنات ، أو إلى النخيل والأعناب ، والأكل مراد به معناه الحقيقى ، ويجوز أن يكون مجازا أو كناية عن التعيش ، والمعنى: ومن ثمرات الجنات وزروعها تأكلون، على أن « من » ابتدائية ، أو ومن بعض ثمارها وزروعها تأكلون ، على أن « من » تبعيضية ، أو ومن ثمار النخيل والأعناب تأكلون ، على أن الضمير يرجع إلى النخيل والأعناب ... أو ومنها ترزقون ، وتحصلون معايشكم ، من قولهم : فلان يأكل من حرفته أو ضيعته أو تجارته ... و« شجرة » المراد بها شجرة الزيتون ، وهى التى يخرج منها الدهن، وقد ذكرها عز وجل عقب ذكر النخيل والأعناب امتنانا على عباده ، لأنها

لا يتعهدها أحد بالسقى ، ولأنها من أكرم الشجر ، وأكثرها بركة ، وأعمها نفعا ... وهى منصوبة عطفا على « جنات » وقرىء بالرفع على أنها مبتدأ خبره محذوف والتقدير : ومما أنشىء لكم شجرة ... وهى شجرة تعمر كثيرا قيل تعمر ألف عام وقيل ثلاثة آلاف ، وقالوا إنها أول شجرة تنبت بعد الطوفان ، وهى تنبت فى سائر البقاع و أكثر ماتكون فى المواضع التى زاد عرضها على ميلها ، واشتد بردها ، وكانت جبلية ذات تربة بيضاء أو حمراء ، وتخصيصها بالخروج من طور سيناء ، إما لأنه المنشأ الأصلى لها ، وإما لتعظيمها فهو مدح لها باعتبار مكانها .. وقد وصفها الله عز وجل بالبركة فى قوله تعالى : « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. »[1] ..

« طور سيناء » قالوا : هو جبل بيت المقدس بفلسطين من أرض الشام ، وقيل هو بين مصر وأيلة ويقال له اليوم العقبة ، وهو الجبل الذى ناجى عنده موسى ـ عليه السلام ـ ربه جل وعلا ، والطور فى كلام العرب : الجبل ، وقيل هو مما عرب من كلام العجم ، واختلف فى معنى سيناء فقيل هو الحسن ، وقيل المبارك ، وذهب الجمهور إلى أنه اسم للجبل كما تقول : جبل أحـــد ، يقال : طور سيناء وطور سينين ، وقيل : سيناء حجر بعينه أضيف الجبل إليه لوجوده عنده ، وقيل هو كل جبل يحمل الثمار ، وقرىء بفتح السين وبكسرها ، وزعم الأخفش أنه أعجمى ، فهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة أو للعلمية والتأنيث ، وقيل إن طور سيناء أو طور سينين اسم للجبل مركب تركيبا إضافيا كامرىء القيس ، أو تركيبا مزجيا كبعلبك ...

« تنبت بالدهن » : الباء للملابسة والمصاحبة ، كما تقول : جاء فلان بثياب السفر ، وهى متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير الشجرة ، أى : تنبت متلبسة

---

(١) سورة النور الآية ٣٥ .

بالدهن ، وهو عصارة كل ما فيه دسم ، والمراد هنا الزيت ، وهذا مدح للشجرة باعتبار ما هى عليه فى نفسها ، بعد مدحها باعتبار مكانها .. وقرىء : « تنبت » بضم التاء وكسر الباء ، وفيها وجوه : أحـــدها أن أنبت بمعنى نبت ، كما فى قول زهير :

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل(١)

أى : حتى إذا نبت البقل ، فأنبت بمعنى : نبت ..

والثانى : أن مفعوله محذوف أى : تنبت زيتونها وفيه الزيت ، والجار والمجرور على هذا فى موضع الحال من المفعول المحذوف أو من الضمير المستتر فى الفعل ...

والثالث : أن الباء زائدة كما فى قوله تعالى : « وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ »(٢) .. وقرىء تنبت مبنيا للمفعول ، والجار والمجرور عندئذ فى موضع الحال من نائب الفاعل وهو الضمير المستتر العائد إلى الشجرة ... « وصبغ للآكلين » : معطوف على الدهن ، أى : تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهنا يدهن به وكونه صبغا يؤتدم به ، وكل إدام يؤتدم به يقال له : صبغ وصباغ ، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب وشبه الإدام به ، لأن الخبز يكون بالإدام كالمصبوغ ، حيث يغمس فيـــه ، ويلون به ، كالخل والزيت وجملتا : « تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ » صفتان « لشجرة » ... «وإن لكم فى الأنعام لعبرة » : بيان للنعم الواصلة إليهم من جهة الحيوان ، إثر بيان النعم الفائضة من جهة الماء والنبات ، والنعمة الواصلة إليهم من جهة الحيوان ، ترجع إلى أمرين : أولهما : كونها فى نفسها نعمة ينتفع بها على وجوه شتى ، ثانيهما : أنها عبرة لابد من أن يعتبر بها ، ويستدل بأحوالها على عظيم قدرة الله عز وجل...

---

(١) قطينا : القطين : المقيمون فى الموضع لايكادون يبرحونه وهو اسم جمع وكذا القاطنة ..

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

قالوا : والمراد بالأنعام فى الآية الإبل خاصة، لأنها هى المحمول عليها فى العادة، ولأنه قرنها بالفلك وهى سفائن البر، كما أن الفلك سفائن البحر، ولأنها موطن العبرة، قال تعالى : « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »[1].. ولا أرى وجها لهذا التخصيص، لأن ماذكر من أوجه الانتفاع لايقتصر على الإبل، وكذا العبرة والعظة ليست مقصورة على الإبل ...

قال تعالى : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[2] ، وقال عز قائلا : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ »[3] أى : ومن أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز، فحمل الأنعام على الإبل خاصة لايناسب مقام الامتنان ولا يتلاءم مع سياق الآيات ...

« نسقيكم مما فى بطونها » : المراد بما فى بطونها إما الألبان، فتكون «من» تبعيضية، والبطون أريد بها الأجواف، لأن اللبن فى الضروع، وإما العلف الذى يتكون منه اللبن فتكون « من » ابتدائية، والبطون على حقيقتها ...

وعلى كلا الوجهين فإن الضمير فى « بطونها» يعود إلى الأنعام باعتبار نسبة ماللبعض إلى الكل .. « وعليها وعلى الفلك تحملون » : الفلك : السفن،والمعنى تحملون أنتم وأثقالكم على الأنعام برا، وعلى الفلك بحرا ... قالوا الضمير فى

---

(١) سورة الغاشية الآية ١٧ . (٢) سورة النحل الآية ٥ — ٨ .
(٣) سورة النحل الآية ٨٠ .

« عليها » يعود إلى الأنعام باعتبار نسبة ما للبعض إلى الكل ، لأن المراد : الإبل ، إذ هى سفائن البر ، ولا أرى وجها لهذا التخصيص أيضاً ، لأن الحمل برا ليس مقصوراً على الإبل ، كما رأينا فى الآيتين الكريمتين : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[1] .

الأغراض والمزايا البلاغية : فى قوله : « وما كنا عن الخلق » ، « وأنزلنا من السماء » وضع للمظهر موضع المضمر إذ تقدم ذكر الخلق والسماء ، فكان الأصل : وما كنا عنه ، وأنزلنا منها ، والسر البلاغى لوضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين ، هو الاعتناء بشأن المظهر ، وإبراز القدرة والمنة ، ولأن الإنزال من السماء لا يعتبر فيه كونها طرائق ، بل مجرد كونها جهة للعلو ... وفى الخلق مجاز مرسل علاقته التعلق الاشتقاقى ، حيث أطلق المصدر وأريد اسم المفعول والمعنى : وما كنا عن المخلوقات أو الخلائق ...

وقدم الجار والمجرور على المفعول فى قوله : « وأنزلنا من السماء ماء » للاعتناء بشأن المقدم ، والتشويق إلى المؤخر ... وفى لفظ « السماء » مجاز مرسل علاقته المجاورة ، إذ الماء ينزل من جهتها ، أو من السحاب الكائن فى جهتها ، وقيل المراد بها معناها المعروف فلا مجاز ، والله عز وجل لا يعجزه شىء ... وتنكير الذهاب فى قوله : « وإنا على ذهاب به لقادرون » يومىء إلى كثرة طرقه وتعدد وجوهه ، ويؤذن باقتدار المذهب جل وعلا ، وأنه إذا أراد لا يعجزه شىء ، وهذه الآية أبلغ فى الإيعاد من قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ »[2] ، وإياك أن تفهم من هذا أن القرآن الكريم يفضل بعضه بعضاً ، ليس هذا مراداً ، إذ كل بليغ

---

(١) سورة النحل آية ٧–٨ . (٢) سورة الملك آية ٣٠ .

ومعجز فى موطنه وسياقه ، والذى نريده أن المقام هنا ، اقتضى شدة المبالغة ، إذ هو لتعداد آيات الآفاق والأنفس على وجـــه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة ، مع كمال عظمة المتصف بهما ، ولذا ابتدىء بضمير العظمة مع التأكيد، بخلاف ما هناك فإنه تتميم للحث على العبادة والترغيب فيها ، فالمقام هناك لايقتضى شدة المبالغة ...

وقد ذكر العلماء عدة أوجه لكون هذه الآية أبلغ وأقوى فى الإيعاد من تلك أهمها :

١ ـ الإيعاد هنا على الجزم وقد أكد بإن واللام « وإنا على ذهاب به لقادرون » ، وهناك على الفرض والتقدير ..

٢ ـ الذهاب هنا فى مطلق الماء المنزل من السماء ، والغائر هناك ماء مضاف إليهم « ماؤكم » ..

٣ ـ أن الغائر قد يكون باقيا بخلاف الذاهب ..

٤ ـ ما فى تنكير « ذهاب » من المبالغة ..

٥ ـ إسناد الذهاب هنا إلى مذهب : «وإنا على ذهاب به ..» بخلاف هناك حيث قيل : « أصبح ماؤكم غورا » ..

٦ ـ التأكيد بإن واللام وجمع « قادرون » والتعبير بضمير العظمة « إنا » ، والجار والمجرور « به » ، وتقديم ما فيه الإيعاد « على ذهاب » ، وخلو التعبير من التعقيب بما هو مطمع ،كالإتيان هناك ».

٧ ـ الكلام هنا جار على الإخبار ، حيث يخبر جل وعلا عن نفسه ، وهناك أمر للغير « قل » .. والخطاب هنا عام وهناك خصص للكفرة ...

فى قوله « ومنها تأكلون » قديكون الأكل حقيقيا، وأنهم يأكلون من ثمار الجنات ولحوم الأنعام ، وقـــد يكون مجازا مرسلا أى : تأكلون وترزقون

بسبب العمل بها ، من قولهم : فلان يأكل من حرفته أى : بسببها ، فهو مجاز مرسل علاقته السببية ... وجائز أن يكون التعبير « ومنها تأكلون » كناية عن التعيش والارتزاق ... وفى قوله : « تنبت بالدهن » على قراءة ضم التاء وكسر الباء ، مجاز عقلى حيث أسند الإنبات إلى الشجرة ، والمنبت هو الله تبارك وتعالى .. وفى « الدهن » مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون ، لأن المنبت هو الثمرة التى يستخلص منها الدهن ...

وفى قوله : « وصبغ » استعارة إذ الصبغ للثوب فاستعير هنا لاختلاط الدهن بالخبز ؛ لأن الخبز يغمس فى الدهن ويلون به للائتدام .. وبين الجملتين فى قوله : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها » كمال اتصال ، إذ الجملة الثانية تفصيل وإيضاح وبيان للجملة الأولى ، والتأكيد فى الأولى ينبىء بغفلتهم عن هذه المنة وعن تدبرها وحسن شكرها ، فقد نزلوا لغفلتهم منزلة المنكر لتلك النعمة فأكد لهم الكلام « وإن لكم فى الأنعام لعبرة » ...

وفى قوله تعالى : « .. فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها .. » تجد أن هذه الضمائر ، « بطونها .. فيها .. منها .. عليها » تعود إلى الأنعام بمعان مختلفة ، فى « بطونها » يعود إليها بمعنى الإناث منها دون الذكور ، وفى : «فيها ومنها» بمعناها العام ، وفى «عليها» بمعنى ما يركب منها أى : البعض ، ويعرف هذا فى البديع بالاستخدام ، حيث يذكر اللفظ بمعنى ، ويعود إليه الضمير أو الضمائر بمعان أخرى ، وفيه من التنبيه والإيقاظ مالا يخفى ، ولك أن تجعل فى الضميرين : « بطونها وعليها » مجازا مرسلا علاقته الكلية حيث أطلق الكل وأريد البعض ...

وفى « البطون » على اعتبار أن المسقى اللبن ، لا العلف الذى يتكون منه اللبن : مجاز مرسل علاقته المجاورة ، حيث أطلق البطون وأراد الضروع ...

وفى تنكير المنافع ووصفها بالكثرة ما يدل على تعددها وتنوعها ، وقد

صرح بثلاث منافع ، منها منفعة قبل هـــذا الإجمال وهى السقى مما فى بطونها ومنفعتان بعده وهى الأكل والركوب ، وفى هذا التصريح تنويه بشأن تلك المنافع الثلاث ، وتنبيه إلى عظم الانتفاع بها ...

معانى الآيات الكريمة : بعد أن بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة خلق الإنسان ، عقبه ببيان خلق ما يحتاج إليه ، فذكر عز وجل أنه خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت، وكثيرا ما يذكر سبحانه خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان : « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »[1] ، ... خلقها تبارك وتعالى وزينها ، زين السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلها رجوما للشياطين، وحث على النظر والتأمل فى عجائب خلقه ، وبديع صنعه: « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »[2] . . « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا »[3] ، وهو سبحانه وتعالى عليم بما خلق : « وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ »[4] ، ليس بغافل عن خلقه ، « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[5] . أنزل من السماء ماء بقدر ، لا قليلا فلا يكفى ولا كثيرا فيفسد ويهلك ، أنزله وسلكه ينابيع فى الأرض وجعله قرارها تنتفع به البلاد والعباد ، وما فعل ذلك سبحانه إلا رحمة بالعباد ، وإسباغا لنعمه على خلقه ، ولو شاء لذهب بالماء ، بأى وجه من وجوه الذهاب والإمساك ، يمنع الغيث .. يصرفه

---

(١) سورة غافر آية ٥٧ .
(٢) سورة يونس آية ١٠١ .
(٣) سورة الطلاق آية ١٢ .
(٤) سورة الأنعام آية ٥٩ .
(٥) سورة الحج آية ٦٥ .

إلى السباخ والقفار والبرارى .. يجعله أجاجا .. ولكنها الرحمة والمنة، وبهذا الماء أنشأ الله تبارك وتعالى الجنات، من النخيل والأعناب، ومختلف الزروع والأشجار، « يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرعَ وَالزَّيتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ »[1] وأنشأ به شجرة الزيتونة المباركة، التى تخرج من طور سيناء، تلك البقعة المباركة، حيث كلم الله موسى تكليما، وهذه الشجرة تنبت بالدهن، وصبغ للآكلين ...

نعمة تلو نعمة، ومنة بعد منة، يقول عليه الصلاة والسلام: « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»، ثم يذكر سبحانه وتعالى ما فى الأنعام من عبرة ومنافع: « وإن لكم فى الأنعام لعبرة » .. « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت »[2] ومنافع الأنعام للعباد لاتحصى، ولذا قال سبحانه: «ولكم فيها منافع كثيرة»، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، ويأكلون من لحومها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويتخذون أثاثا ومتاعا إلى حين، ويركبون ظهورها: « لِتَستَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذكُرُوا نِعمَةَ رَبِّكُم إِذَا استَوَيتُم عَلَيهِ وَتَقُولُوا سُبحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقرِنِينَ »[3]، ويحملون عليها الأثقال إلى البلاد النائية « وَتَحمِلُ أَثقَالَكُم إِلَى بَلَدٍ لَم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُم لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »[4]، ولما ذكر سبحانه انتفاع العباد بالأنعام، التى من جملتها ركوبها، والانتقال عليها برا، عطف عليها الفلك التى تحملهم بحرا « وعليها وعلى الفلك تحملون » إنه تكريم للإنسان، وامتنان وإسباغ للنعم «وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلنَاهُم فِى البَرِّ وَالبَحرِ وَرَزَقنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقنَا

---

(١) سورة النحل الآية ١١ .
(٢) سورة الغاشية الآية ١٧ .
(٣) سورة الزخرف الآية ١٣ .
(٤) سورة النحل الآية ٧

تَفْضِيلاً »[1]، فينبغى على الإنسان أن يتدبر تلك النعم ، وأن يشكر الله عليها ، ويحسن جوارها ، حتى تدوم وتزداد : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »[2] .

* * *

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ . فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ » .

اللغة والإعراب : أرسل : الإرسال فى اللغة : التوجيه والاسم منــه : الرسالة،والرسول فى الشرع من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه،والفرق بينه وبين النبى أن النبى لم يؤمر بتبليغ .. ونوح عليه السلام أول رسول أرسل إلى أهل الأرض بعد آدم عليهما السلام ، قالوا : ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثلما لقى نوح إلا نبى قتل ، ولعل هـذا ما يفسر لنا سبب دعائه عليهـم :

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠ .   (٢) سورة إبراهيم الآية ٧ .

«رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً »[1] ، وسمى نوحا لكثرة ما ناح ، وكان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام ، قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم مساجد ، وصوروا صورهم فيها ليتذكروا أحوالهم وعبادتهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، ثم بتمادي الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : « وَدًّا وَسُوَاعاً وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً » فأرسل الله تبارك وتعالى إليهم نوحا يأمرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام[2] ..

وجملة : « لقد أرسلنا نوحا » واقعة فى جواب قسم مقدر .. كما فى « ولقد خلقنا الإنسان .. ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق .. » .

والقوم : الجماعة من الرجال والنساء معا ، أو الرجال خاصة ، أو تدخله النساء على التبعية ، ويجمع على أقوام ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه ..

« من إله غيره » : « إله » مبتدأ خبره لكم ، أو محذوف و « من » زائدة ، و« غير » بالرفع صفة لإله باعتبار محله ، وقرىء بالجر اعتباراً للفظ « إله » ، والمعنى : مالكم إله غيره ، أو مالكم فى الوجود إله غيره ..

والإله : الله عز وجل ، وكل ما اتخذ من دون الله معبودا إله عند متخذه ، والجمع : آلهة ، والآلهة : الأصنام ، سميت بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها ، وأسماء العرب تتبع اعتقاداتهم ، لا ما عليه الشيء فى نفسه ، وأصل الإله : من أله بكسر اللام يأله بفتحها ، أى : تحير ، فالعبد إذا وقع فى عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الربوبية ، وصرف عقله إليها ، أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد ، وعندئذ يقال له : أله يأله ، أى تحير[3] ..

---

(١) سورة نوح الآية ٢٦ .   (٢) انظر مختصر ابن كثير ج ٢ ص ٢٨ .
(٣) انظر لسان العرب ماده أله ص ١١٤ .

« أفلا تتقون » الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : أتعرفون ذلك أى : مضمون قوله « ما لكم من إله غيره » فلا تتقون عذابه أو زوال نعمه، أو ألا تلاحظون فلا تتقون ، إنكاراً للأمرين معا عدم الملاحظة وعدم التقوى ، وأرى أن المنكر هو مدخول الهمزة مع معنى الفاء ، أى ترتب عدم التقوى على معرفتهم أنه ليس لهم إله غيره(١) ..

والتقوى : اسم والفعل : اتقى وتوقى ، يقال : توقيت الشىء واتقيته أى : حذرته .. ووقاه الله وقيا ووقاية أى : صانه وستره وحماه .. ومفعول « تتقون » محذوف والمعنى : أفلا تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذى لا يستحق العبادة غيره وليس لكم إله سواه ، أو أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويزيلها ، أو أفلا تقون أنفسكم عذابه الذى تقتضيه ذنوبكم ومعاصيكم ..

الملأ : أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم ، وسموا بذلك لأنهم ملاء بما يحتاج إليه ..

والكفر : نقيض الإيمان ، يقال : كفر بالله يكفر كفرا وكفورا وكفرانا ، ويقال : كفر النعمة أى : جحدها فلم يشكرها ، وكفر نعمة الله وكفر بها أى جحدها وسترها ..

التفضل : طلب الزيادة والفضل وهو كناية عن السيادة ، كأنهم قالوا : يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه بشرا مثلكم .. و « الذين كفروا » صفة للملأ ، قيل المراد بها ذمهم والإيذان بكمال عراقتهم فى الكفر دون التمييز عن أشراف آخرين آمنوا ، إذ لم يؤمن به أحد من أشرافهم ، كما يفصح عنه قوله تعالى : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا »(٢) ..

---

(١) انظر أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٣٤ .
(٢) سورة هود آية ٢٧ .

وقيل يصح أن يكون المراد بها تمييزهم ، وما فى آية هود ، إنما هو على عل زعمهم ، أو لقلة المتبعين له من الأشراف ... «بشر» البشر : الخلق، يطلق على الذكر والأنثى وعلى الواحدوالاثنين والجمع ، يقال : هو بشروهى بشروهما بشروهم بشر ، قيل : لايثنى ولايجمع ، وقيل قد يثنى وقد يجمع ، وفى التنزيل : « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ »[1] والجمع أبشار[2].وقوله: « مثلكم » تأكيد لبشريته عليه الصلاةوالسلام،وجملة « يريد أن يتفضل عليكم» صفة لبشر ... « ما سمعنا بهذا » : قالوا فى تحديد المشار إليه أقوالا أهمها :

١ - أن يكون المشار إليه كلامه ، أى : ما سمعنا بهذا الكلام ..

٢ - أن يقدر مضاف محذوف ، والمعنى : ما سمعنا بمثل هـــذا الكلام فى آبائنا ، أى : فى الأمم الماضية ، وسبب تقدير المضاف : أن عدم السماع بكلام نوح فى الأولين لا يصلح للرد عليه ..

٣ - أن يكون المشار إليه نوحا عليه السلام ، والمعنى : ما سمعنا بخبر نبوته أو با سمه ، ولو كان نبيا لكان له ذكر فى آبائنا الأولين .

وقيل : الباء زائدة، والمعنى : ما سمعنا هذا كائنا فى الماضين ... « جنة » : يقال جن الشيء يجنه جنا . أى : ستره ، وكل شيء ستر عنك فقد جن ، وجنه الليل وجن عليه وأجنه : ستره ، وبه سمى الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار ، والجنين لاستتاره فى بطن أمه ، والجنون لســـتره العقل ، والجنة والجنون بمعنى واحد ».

والمراد فى الآية الكريمة : « إن هو إلا رجل به جنة » أى . جنون أو جن يخبلونه فيقول ما يقول ، ولذا قالوا . « فتربصوا به حتى حين » أى . احتملوه واصبروا عليه وانتظروا حتى يستبين أمره ، بأن يفيق من جنونه فيترك هذه

---

(١) سورة المؤمنون آية ٤٧ .

(٢) انظر لسان العرب مادة بشر .

الدعوى ، أو يذهب عنه الجن ، أو يموت فتستريحوا منه ، فالتربص : الانتظار ، يقال : ربص بالشيء ربصا ، وتربص به تربصا أي : انتظر به خيرا أوشرا ، وليس المراد بالحين وقتا بعينه إنما هو كقولهم : دعه إلى يوم ما ..

والباء في قوله : « بما كذبون » للسببية ، و« ما » مصدرية أي : بسبب تكذيبهم إياي ، وجوز أن تكون الباء آلية ، و« ما » موصولة ، والمعنى : انصرني بالذي كذبوني به وهو العذاب الذي حذرتهم منه ضمن قولي لهم : « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »(١) ..

« فأوحينا إليه » : يطلق الوحي على الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والإيماء والكلام الخفي ، يقال : وحيت إليه الكلام وأوحيته وحيا أي : ألقيته إليه ، وفي التنزيل : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ »(٢) ، أي : ألهمها وأمرها .. « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا »(٣) أي : أشار إليهم وأومأ .. ويقال : استوحيته إذا استفهمته ... والوحي : ما يوحيه الله عز وجل إلى أنبيائه عليهم السلام ،قالوا : وسمي وحيا ، لأن الملك أسره على الخلق وخص به النبي المبعوث إليه ...

« أن اصنع الفلك » : الفلك : السفينة ، تذكر وتؤنث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع ، وأن : مفسرة لما في الوحي من معنى القول .. « بأعيننا » : الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل « اصنع » ، والمعنى : متلبسا بمزيد حفظنا ورعايتنا لك من التعدي أو من الزيغ في الصنع ، متبعا لأمرنا الذي نوحيه إليك ...

والمراد بالأمر في قوله : « فإذا جاء أمرنا » : العذاب ، كما في قوله تعالى :

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٩ .   (٢) سورة النحل آية ٦٨ .
(٣) سورة مريم آية ١١ .

« لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ »[1] وجمعه أمور » ، وليس المراد به الأمر بالركوب ، فهو واحد الأوامر ، والمراد بمجيئه : كمال اقترابه أو ابتداء ظهوره ، وقوله : « وفار التنور » أي : جاش ، يقال : فارت القدر تفور فورا وفورانا إذا غلت وجاشت ، فهو بيان وتفسير لمجيء الأمر ، أي أن مجيء الأمر هو فور التنور ، ففور التنور علامة مبينة لمجيء أمر الله عز وجل ...

وقيل إنه معطوف على ما قبله عطف نسق ، فالواو عاطفة وليست بيانية ، والتنور في اللغة: نوع من الكوانين ، وهو ما يخبز به ، ويطلق أيضا على وجه الأرض ، وقد اختلف في المراد به في الآية الكريمة ، فقيل : هو تنور آدم عليه السلام ، صار إلى نوح ، فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته ، فركبوا السفينة. وقيل : التنور وجه الأرض ، والمراد بالفور : تفجر الأرض وفوران الماء منها ، وقيل : طلوع الفجر وتنوير الصبح ، وقيل : إن الماء فار من تنور الخابزة ، وقال ابن عباس : التنور الذي بالجزيرة وهي عين الورد ، قيل أراد سبحانه إذا فار الماء من ناحية مسجد الكوفة ، وقيل : إنه تنور آدم كان في مسجد الكوفة ، أو في الشام أو في الجزيرة ، والله تعالى أعلم بمراده[2] ...

« فاسلك فيها » أي : أدخل ، يقال : سلك فيه أي : دخل فيه ، وسلكه : أدخله ، ومنه قوله تعالى : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ »[3] أي : ما أدخلكم فيها وصيركم إليها ... « من كل زوجين اثنين » أي : من كل أمة زوجين أي : فردين مزدوجين ذكر وأنثى ، كما يعرب عنه قوله « اثنين » ، فزوجين مفعول « اسلك » ، واثنين تأكيد وزيادة بيان ، وقرىء من كل بدون تنوين ، على الإضافة فيكون المفعول « اثنين » والمعنى : من كل أمتي الذكر والأنثى اثنين ، كجمل وناقة وثور وبقرة ...

---

(١) سورة هود آية ٤٣ .

(٢) انظر روح المعاني ج ١٨ ص ٢٦ .

(٣) سورة المدثر آية ٤٣

« وأهلك » : مفعول به لفعل محذوف ، أى : واسلك أهلك ، والمراد بالأهل : كل من آمن به ، فالاستثناء فى قوله : « إلا من سبق عليه القول منهم » استثناء منقطع ، وقيل المراد بالأهل ذوى قرابته ، فالاستثناء متصل ، والمستثنى ابنه وزوجه ، اللذان كفرا به ، ولم يذكر من آمن من غير الأهل هنا اكتفاء بذكره هناك فى سورة هود ... « إلا من سبق عليه القول » المراد بالقول : القول بإهلاكهم ، والمراد بسبق ذلك : تحققه فى الأزل ، أو كتابة ما يدل عليه فى اللوح المحفوظ قبل أن تخلق الدنيا ، وجيء بعلى لكون السابق ضارا ، كما جيء باللام فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ »[1] ، وقوله عز قائلا : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ »[2] لكون السابق نافعا ...

« ولا تخاطبنى » أى : لا تكلمنى وتحدثنى فيهم بشفاعة وطلب النجاة لهم من الغرق والعذاب ... ومعنى « استويت على الفلك » علوته واعتدلت عليه ...

« منزلا مباركا » قرىء بفتح الميم وكسر الزاى على أنه اسم مكان ، والمعنى : أنزلنى مكانا مباركا ، وقرىء بضم الميم وفتح الزاى على أنه مصدر ، والمعنى : نزولا مباركا .. « إن فى ذلك » : المشار إليه هو المذكور من أمر نوح والسفينة وإهلاك الكفار .. « وإن كنا لمبتلين » إن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، واللام فارقة بينها وبين إن النافية ، والجملة حالية ، والمعنى : وإن الشأن كنا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم ، أو مختبرين بتلك الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ، كما فى قوله : « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »[3] .

الأغراض والمزايا البلاغية : فصل قوله تعالى : « ما لكم من إله غيره » عما قبله للاستئناف البيانى ؛ لأنها مسوقة لتعليل العبادة المأمور بها أو لتعليل الأمر بها ، والعطف بالفاء فى قوله : « فقال يا قوم » ينبىء بمبادرة نوح عليه

---

(١) سورة الصافات الآية ١٧١ . (٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١ .

(٣) سورة القمر الآية ١٥ .

السلام ومسارعته إلى التبليغ وعدم توانيه فى أداء ما كلفه الله به ، وإضافة القوم إليه : « قومى » ينبئ بتعطفه عليهم واستمالته لهم إلى الحق والهداية ..

والمراد بالأمر فى قوله : « اعبدوا الله » إفراده بالعبادة وإخلاصها له ، أى : اعبدوه وحده ، كما يفصح عنه : « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ »[1] ، وترك التقييد هنا للإيذان بأنها هى العبادة ، أما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة فى شئ ... والاستفهام فى قوله : « أفلا تتقون » استفهام إنكارى ، ودخول الهمزة على الفاء يفيد أن المنكر هو ترتب عدم وقوع التقوى على علمهم أنه ليس لهم إله غيره أى : كيف لا تتقون وقد تيقنتم أنه الإله الحق ...

وفى قوله : « مالكم من إله غيره » قصر لصفة الألوهية عليه تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا .. وفى قوله : « ما هذا إلا بشر مثلكم » قصر لنوح عليه السلام على صفة البشرية لا يتعداها إلى كونه ملكا، فهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا .. وفى قوله : « إن هو إلا رجل به جنة » قصر له عليه السلام على صفة الجنون أو على مجئ الجن واتصالهم به فهم يخبلونه..وفى قوله : «ولو شاء الله لأنزل ملائكة » حذف مفعول المشيئة لدلالة جواب « لو » عليه والمعنى : لو شاء إرسال رسول لأرسل ملكا ، أو لو شاء أن نعبده وحده لأنزل ملائكة يبلغوننا ذلك .. وفى « أنزل » مجاز مرسل علاقته اللزومية ، لأن إرسال الملائكة يستلزم إنزالهم ..

وقد أوثر التعبير بعلى فى قوله : « إلا من سبق عليه القول منهم » ، لكون السابق ضارا ، كما جئ باللام فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى »[2] ، لكون السابق نافعا ، وقد اجتمعت اللام وعلى فى قوله تعالى « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »[3] ، وقول عمر رضى الله عنه :

---

(١) سورة هود الآية ٢٦ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

« ليتها كانت كفافا لا علي ولا لي » .. وفي قوله : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » فصلت جملة : « إنهم مغرقون » عما قبلها للاستئناف البياني لأنها تعليل للنهي عن المخاطبة ، أو لما ينبيء عنه من عدم قبول الشفاعة ، وقد أكدت لانشغال نوح عليه السلام بأمرهم حيث تقدم الأمر بصنع الفلك ، والنهي عن المخاطبة في شأن الذين كفروا ، وكأنه عليه السلام تساءل هل سيغرقون ؟ ، تعلق ذهنه وانشغل بما سينزل بهم ، ولذا كان التأكيد : « إنهم مغرقون » تثبيتا وتقريرا وإجابة لهذا الانشغال وذاك التساؤل .. وفي « الذين ظلموا » وضع للمظهر في موضع المضمر تسجيلا عليهم ..

وفي قوله : « فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » قدم إدخال الأزواج على الأهل ، لأن إدخال الأزواج يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه السلام وإلى معاونة الأهل ، أما هم فيدخلون باختيارهم ، وأيضا فإن في المؤخر ضربا من التفصيل بذكر الاستثناء وغيره ، فتقديمه يخل بتجاوب النظم الكريم ..

وفي قوله : « قال رب انصرني » استئناف بياني وكأن سائلا سأل : فماذا قال عليه السلام ؟ ، فأجيب : « قال رب انصرني .. » ..

وفي قوله : « فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلني .. » جملة من المزايا والملاحظات البلاغية أهمها :

١ ـ التعبير بإذا التي تفيد تحقق الاستواء والقطع بوقوعه ..

٢ ـ إفراده عليه السلام بالأمر « قل » مع شركة الكل في الاستواء لإظهار فضله عليه السلام وعلو منزلته فهو الذي يشرف ويفوز بعز الحضور في مقام الإحسان ، مع الإيماء إلى كبريائه عز وجل وأنه سبحانه لا يخاطب كل أحد من عباده ، والإشعار بأن في دعائه عليه السلام وثنائه مندوحة عما عداه ..

٣ ـ تكرار « قل » لتعدد الدعاء ، والأول متضمن دفع المضرة « الحمد لله

الذى نجانا .. » والثانى لجلب المنفعة ، « رب أنزلنى منزلا مباركا» ، ولذا كان تقديم الأول على الثانى ..

٤ ـ فى « القوم الظالمين » وضع للمظهر موضع المضمر تسجيلا للظلم الذى استحقوا من أجله الإهلاك والإغراق..

٥ ـ قيل : « الحمدلله الذى نجانا من القوم الظالمين» ولم يذكر إهلاكهم ، لأن الحمد على الإنجاء منهم متضمن للحمد على إهلاكهم ، ولأن نعمة الإنجاء أتم من نعمة الإهلاك ، وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغى أن يسر بمصيبة أحد ولو عدوا من حيث كونها مصيبة له ، بل لما تتضمنه من السلامة من ضرره أو تطهير الأرض من وسخ شركه وضلاله ، فالحمد رديف الشكر ،وإذاخص بالنعمة الواصلة إلى الشاكر ، لا يصح أن يتعلق بالمصيبة من حيث أنها مصيبة ..

معانى الآيات الكريمة : لما ذكر سبحانه وتعالى نعمه التى أنعم بها على عباده، نعمة خلقهم وخلق السموات ، وحفظه ورعايته شئونهم ، وإنزال الماء الذى فيه حياتهم ، وخلق الأنعام لمنافعهم وليتأملوا ، أتبع ذلك ذكر أخبار السابقين ، وبيان إهمال الناس ، وتركهم النظر والاعتبار والتأمل فيما خلق الله ، وعددمن النعم ، وما حاق بهم وحل من عذاب ، لكفرهم النعمة ، وإعراضهم عن التدبر والنظر ، وذلك بغرض التخويف والتحذير والحث على التأمل والاعتبار ، وقد بدأ بقصة نوح عليه السلام ، إذ هو أول رسول بعد آدم عليهما السلام ، وفى إيرادها إثر قوله تعالى : « وعليها وعلى الفلك تحملون » مالا يخـــفى من حسن الموقع ولطف التناسب ، حيث نجى عليه السلام بالفلك الذى أمر بصنعه ، وقد صدرت القصة بالقسم لكمال الاعتناء بمضمونها .. فقد بعثه الله عز وجل إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، وأرجح الأقوال أن نوحا عليه السلام بعث فى سن الأربعين وظل يدعو قومه هذه الفترة ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، فعمره خمسون وألف سنة .. ولم يؤمن بدعوة نوح عليه السلام ،

على الرغم من طول مكثه فيهم إلا قليل من قومه ، فقد كذبوه وآذوه وأعرضوا عن دعوته ، وقالوا « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا »[1] ولا عتقادهم الباطل أن الرسول لا يكون بشرا ، قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم » ، وأثاروا المخاطبين وأغضبوهم وألهبوا حميتهم ضده عليه السلام ، فقالوا : « يريد أن يتفضل عليكم » ، ثم أكدوا أمر بشريته منكرين إرساله : « ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . » أى : ما سمعنا بمثل هـذه الدعوى أو بمثل هذا الكلام ، أو ما سمعنا بنوح ، يريدون تحقيره والحط من شأنه . ولذا قصروه على الجنون ، وقالوا تربصوا به حتى يفيق ، أو يذهب ما به ، أو يموت فنستريح منه ، قالوا ذلك على الرغم من معرفتهم أنه أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا .. وما أعجب شأن الكفرة ، لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر .. ولشدة مالاقى عليه السلام من الأذى دعا ربه : أنى مغلوب فانتصر ، وقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، رب انصرنى بما كذبون ، واستجاب الله دعاءه وأمره بصنع الفلك ، فإذا جاء أمر الله وحل عذابه وانتقامه ، فليسلك فى السفينة من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول بالإهلاك لإعراضه وكفره ... روى أنه عليه السلام لم يحمل فى الفلك إلا ما يلد أو يبيض ، أما ما يتولد من العفونات كالبق والذباب والدود فلم يحمل منه شيئا ولعل نحو البغال ملحقة بهذا الجنس فى عدم الحمل ... [2] ونهاه ربه أن يناجيه فى شأن الكفرة الظالمين فإنهم مغرقون ، وأمره أن يدعو عند استوائه هو ومن معه على الفلك قائلا : « الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين » . وأن يقول : « رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ، يقول ذلك عند دخوله الفلك ، أو عند نزوله منها إلى الأرض ، ولا بأس من إرادة أن يقال ذلك الدعاء عند دخول الفلك ، وبعد الدخول ، على إرادة دوام البركة ، وعند النزول

---

(١) سورة هود الآية ٢٧ . (٢) انظر روح المعانى ج ١٨ ص ٢٧ .

إلى الأرض بعد انتهاء الطوفان ... قالوا : نزل عليه السلام على الجودى وهو جبل بالجزيرة ، وقيل بالموصل ، وقيل هو الطور ، والله أعلم ، ثم يذكر سبحانه وتعالى أن فى تلك القصة آيات لمن أراد أن يعتبر ، فيها عظات لمن ألقى السمع ، وتأمل وتدبر ، وأن الشأن أن يبتلى الله عباده ويختبرهم ليظهر من يعتبر ويتذكر، شأنه تعالى أن يرسل الرسل ، ويبين الآيات : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً »(1) .

* * *

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ . فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ . أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ . قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

اللغة والإعراب : القرن : الأمة تأتى بعد الأمة ، قيل مدته عشر سنين وقيل عشرون وقيل ثلاثون وقيل ستون ، وقيل مائةسنة وهذا هو الأرجح ، وجمعه قرون ، والقرن من الناس : أهل زمان واحد ، قال الشاعر :

(1) سورة الإسراء الآية ١٥ .

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهم　　وخلفت فى قرن فأنت غريب

ويطلق القرن على الفترة من الزمان ، وللقرن معان أخرى كثيرة تستقصى فى كتب اللغة ، والمراد به فى الآية :الأمة وأهل الزمان الواحد ، وقد اختلف المفسرون فى هؤلاء الذين أنشأهم الله بعد إهلاك قوم نوح ، فقيل هم عاد قوم هود ، لقوله تعـــالى : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ »[1] ، ولمجيء قصتهم على إثر قصة نوح فى غير هذا الموضع ، وقيل هم ثمود قوم صالح ، لأنهم هم الذين أهلـكوا بالصيحة ، وقد قال عز وجل فى هذه القصة « فأخذتهم الصيحة »،وقيل هم أهل مدين قوم شعيب ، لأنهم ممن أهلك بالصيحة ، والراجح الأول ، وأما ذكر الصيحة ، فقد روى أن جبريل عليه السلام ، صاح بهـــم من الريح ، وفى ذكر كل على حدة : « فأخذتهم الصيحة » هنا ، « وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ »[2] هناك ، إشارة إلى أن كلا لو انفرد لتدميرهم لـكفى ، كما أنه يجوز أن يراد بالصيحة : العقوبة الهائلة والعذاب المصطلم ، قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة　　خروا لشدتها على الأذقان

« فأرسلنا فيهم رسولا » : عدى فعل الإرسال بفى ، على الرغم من أنه يتعدى بإلى ، للإيذان من أول الأمر بأن من أرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم ، بل نشأ فيهم ، بين أظهرهم ، يعرفون مكانه ومولده ، ليـكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم إلى من يأتيهم من غير مكانهم ...

و« أن » فى قوله : «أن اعبدوا الله» مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول ، أى : قلنا لهم على لسان الرسول «اعبدوا الله» ، وجوز كون « أن » مصدرية ، وقبلها جار مقدر ، والمعنى : فأرسلنا فيهم رســـولا منهم بأن اعبدوا الله ...

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٩ .　　(٢) سورة الحاقة آية ٦ .

« وكذبوا بلقاء الآخرة » أي: بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب، أو كذبوا بالبعث، ووصف الملأ بالكفر والتكذيب ذما لهم وتنبيها على غلوهم فى الكفر والتكذيب ، أو تمييزا لهم عمن آمن ، إن كان فيهم من آمن من الأشراف ، على نحو مامر بك فى قصة نوح عليه السلام ...

« ومن قومه » بيان للملأ قدم على وصفهم لغرض بلاغى سيأتى بيانه ...

« وأترفناهم » :أى: نعمناهم ووسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه وكفروا وكذبوا...فالترف: التنعم ، يقال : صبى مترف إذا كان منعم البدن مدللا ، ويقال : أترفته النعمه : أطغته ، فالمترف هو الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش ...

« مما تشربون » « ما » إما مصدرية والمعنى : ويشرب من شربكم ، وإما موصولة والعائد محذوف دل عليه ما قبله، والمعنى : ويشرب مما تشربونه ، أو ويشرب مما تشربون منه ، على اعتبار أن المحذوف إما العائد وحده ، أو العائد مع الجار ...

« ولئن » : اللام موطئة للقسم ، وجملة « إنكم لخاسرون » جواب القسم ، و« إذا » قيل ظرف متعلق بما تدل عليه النسبة بين المبتدأ والخبر من الثبوت ، أو متعلق بالخبر ، واللام لا تمنع عن العمل فى مثل ذلك ، لأن الظرف وكذا الجار والمجرور يتوسع فيهما مالم يتوسع فى غيرهما ، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة المضاف إليها الظرف إذ، وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور، والمعنى : والذى نقسم به إنكم لخاسرون ، إن أطعتم بشرا مثلكم تخسروا عقولكم وتغبنوا فى آرائكم ، إذ أذللتم أنفسكم بطاعة بشر مثلكم ..

وقيل إن « إذا » حرف جواب وجزاء واقع فى جواب الشرط المقدر ، والمعنى : إن أطعتم بشرا مثلكم إذاً تخسروا عقولكم وتغبنوا فى آرائكم...

« أيعدكم أنكم » : يقدر حرف الجر ويجوز ألا يقدر ، لأن وعد يتعدى

بالباء ويتعدى بنفسه ، يقال : وعدتك الخير ، ووعدتك به .. « إذا متم »:إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، ومتم : بكسر الميم من مات يمات ، كخاف يخاف ، وقرىء بضمها من مات يموت ، كقال يقول ، و« مخرجون » خبر أن الأولى ، و« أنكم » الثانية مكررة للتأكيد ، وجواب إذا محذوف والمعنى : أيعدكم بأنكم مخرجون ؟ تخرجون إذا متم .. ويجوز أن يجعل : « أنكم مخرجون » مبتدأ ، و« إذا متم » خبرا على معنى : إخراجكم إذا متم ،ثم أخبر بالجملة عن «أنكم» الأولى ، ويجوز أن يرفع : « أنكم مخرجون » بفعل هو جزاء للشرط ، كأنه قيل:إذا متم وقع إخراجكم ، وتكون جملة الشرط خبرا لأنكم الأولى .. « هيهات » قرىء بالفتح والضم والكسر وكلها بالتنوين وبلا تنوين ، وقرىء بالسكون على لفظ الوقف ، وهو اسم فعل ماض بمعنى بعد، وفاعله مستتر يرجع إلى التصديق أو الصحة أو الوقوع أو نحو ذلك مما يفهمه السياق ، والمعنى : بعد التصديق أو بعد وقوع الذى توعدونه ، أو بعد إخراجكم ، وتكرار هيهات لتأكيد البعد ، والغالب فى هذه اللفظة مجيئها مكررة ، وقد جاءت غير مكررة كما فى قول جرير :

* وهيهات خل بالعقيق نواصله *

وقوله عز وجل « لما توعدون » بيان لمرجع ذلك الضمير فاللام متعلقة بمقدر ، كما فى سقياله ، أى : التصديق أو الوقوع أو الإخراج المتصف بالبعد كائن لما توعدون ، وأجاز البعض أن يكون الفاعل محذوفا وليس بضمير مستتر وهو مصدر كالوقوع والتصديق والجار والمجرور متعلق به ، وقيل إن فاعل « هيهات » : ما توعدون ، واللام زائدة ، ويؤيده قراءة ابن أبى عبلة « هيهات هيهات ما توعدون » بغير لام ، ورد بأنها لم تعهد زيادتها فى الفاعل ، وقيل إن اللام فى : « لما توعدون » لبيان المستبعد ، كما فى قولهم : هيت لك ، كأنه قيل : لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لما توعدون ... وقيل إن هيهات فى تقدير المصدر ، والمعنى : البعد لما توعدون ، أو بعد لما توعدون ، فتكون على هذا مبتدأ خبره

« لما توعدون » ... « إن هى إلا حياتنا » : عاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة لأنه فسر بالخبر ... وجملة : « وما نحن بمبعوثين » جملة حالية ...

« عما قليل » : أى : عن زمن قليل ، فما صلة بين الجار والمجرور ، جيء بها لتأكيد معنى القلة ، ومثله قوله تعالى : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ »(١)، و«قليل»: صفة لزمان حذف واستغنى بها عنه، والاستغناء عنه يؤكد أيضا معنى القلة ...

وجوز أن تكون«ما» نكرة تامة، «وقليل»بدلا منها ، وأن تكون نكرة موصوفة بقليل ،و«عن»هنا بمعنى بعد ، أى:بعد وقت قليل،والجار والمجرور متعلق بقوله : « ليصبحن نادمين » ، وتلعقه بكل من الفعل والوصف محتمل ، أى : ليصبحن عما قليل نادمين ، أو ليصبحن نادمين عماقليل ، واللام فى «ليصبحن» لام القسم ، وجاز تعلق الجار والمجرور بالفعل «يصبح» أو بالوصف« نادمين» مع توسط لام القسم ، لأن الجار والمجرور والظرف يتوسع فيهما مالا يتوسع فى غيرهما ...

و«الصيحة»:صيحة جبريل عليه السلام، حيث صاح بهم صيحة فدمرتهم،ويجوز أن يراد بالصيحة العقوبة الهائلة والعذاب الشديد..و«بالحق»:متعلق بالأخذ، والحق: الأمر الثابت الذى لامدفع له ، كما فى قوله تعالى : «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ »(٢)، أو العدل من قولك : فلان يقضى بالحق إذا كان عادلا فى قضاياه، أو الوعد الصدق الذى وعد به رسوله ضمن قوله : « عما قليل ليصبحن نادمين»..

« فجعلناهم غثاء » ، أى : كغثاء السيل وهو ما يحمله من الورق والعيدان البالية ، ويجمع على أغثاء شذوذا ، وقد تشدد ثاؤه ، كما فى قول امرىء القيس يصف ذرى رأس المجيمر وهو جبل من جبال بنى أسد :

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ . (٢) سورة ق الآية ١٩ .

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة　　من السيل والغثاء فلكة مغزل

« فبعداً للقوم الظالمين » : يحتمل الإخبار ويحتمل الدعاء ، « وبعـــداً » منصوب على المصدرية ، وهو من المصادر التي لا يذكر فعلها معها ، واللام إما لبيان من دعى عليه إذا كان المراد الدعاء ، أو متعلقة بمحذوف إذا كان المراد الإخبار ببعدهم ، والبعد ضـــد القرب ، والمراد به : الهلاك والطرد من رحمة الله ، والمعنى : بعدوا بعدا من رحمة الله أو من كل خير أو من النجاة ، أو هلكوا هلاكا كائنا للقوم الظالمين ...

الأسرار والمزايا البلاغية : فى قوله تعالى : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا » قدم الجار والمجرور : « من قومه » على الصفة « الذين كفروا ... » ففصل به بين الصفة والموصوف ، على الرغم من تأخيره فى القصة السابقة ، وذلك لأمرين :

الأول : لئلا يطول الفصل بين البيان والمبين لو جىء بالجار والمجرور بعد الصفة وما فى حيزها مما تعلق بالصلة ..

الثانى : حـــتى لا يتوهم تعلقه بالدنيا لو أخر ، أو يفصل به بين المعطوف والمعطوف عليه لو جىء به بعد الوصف وقبل العطف ..

وفى قوله : « ما هذا إلا بشر مثلكم » مبالغة فى توهين أمر الرسول عليه السلام وتهوينه ، وذلك بقصره على صفة البشرية ، والرسول فى زعمهم لا يكون بشرا ، قاتلهم الله ، ما أجهلهم ...

وفى قوله تعالى : « ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون » حذف القسم وجواب الشرط « إن » والمضاف إليه الظرف « إذ » والتقدير : والذى نقسم به إنكم لخاسرون ، إن أطعتم بشرا مثلكم تخسروا عقولكم ، وتغبنوا فى آرائكم ، إذ أذللتم أنفسكم بطاعة بشر مثلكم ، ووراء تلك المحذوفات دقائق لطيفة ، فحذف القسم ينبىء ببعد المقسم به ، وضرورة أن ينزه النظم الكريم عن ذكره ، فهم بم يقسمون ؟ باللات والعزى ومناة ، وغيرها من الأصنام..

وحذف جواب الشرط والمضاف إليه الظرف ، يومىء إلى ضرورة أن تنزه عقولهم عن الخسران وآراؤهم عن الغبن وأنفسهم عن الذل ، فلا ينسب ذلك إليهم فى اللفظ ، فهم يعتقدون أن عقولهم وآراءهم وأنفسهم بمنأى عن ذلك ، ولا ينسب إليها إلا ما يدل على الرفعة والسمو ...

والاستفهام فى قوله : « أيعدكم .. » يفيد الإنكار، إنكار وقوع مايدعوهم للإيمان به ، واستبعاده ، وتكرار « أنكم » و« هيهات » يفيد المبالغة فى إنكار واستبعاد وقوع ما يدعوهم للإيمان به ... وتقديم التراب على العظام فى قوله : « وكنتم ترابا وعظاما » لعراقته فى الاستبعاد والإنكار ، وجائز أن يكون مرادهم : إذا صار متقدموكم ترابا صرفا ومتأخروكم عظاما ... وفى قوله : « إن هى إلا حياتنا الدنيا » وضع للضمير موضع الظاهر إذ المعنى : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وهذا يدل على التوكيد ، لأن ذكر الضمير أولا « هى » يجعل المخاطب يتطلع ويستشرف إلى إيضاحه وبيانه ، فعندما يأتى الخبر مفسرا له ومبينا يقر فى النفس ويتأكد وتأنس به ، ولايخفى عليك ما فى القصر أيضا من الدلالة على التوكيد والمبالغة فى إنكار البعث .. وجملة « نموت ونحيا » بيان وتفسير للجملة قبلها ، فبين الجملتين شبه كمال اتصال أى : استئناف بيانى ، إذ ينبعث من الجملة الأولى سؤال تقع الثانية جوابا له ، وكأن سائلا سأل : كيف لاتكون الحياة إلا حياتكم الدنيا ؟ فجاء الجواب : نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ،، وهذا هو سر الفصل بين الجملتين ...والتعبير بالاسم فى قوله: «وما نحن بمبعوثين » .. « وما نحن له بمؤمنين » يفيد توكيد النفى ويدل على استمراره ودوامه .. وفى قوله تعالى : « عما قليل » حذف للموصوف وزيادة « ما » والمعنى: عن زمن قليل ليصبحن نادمين، والحذف والزيادة يدلان على تأكيد معنى القلة ، والمبالغة فى قصر الزمن ... وفى قوله : « فجعلناهم غثاء » : تشبيه بليغ ، حيث شبههم وقد أهلكوا ودمروا بالغثاء الذى يحمله السيل من الورق والعيدان البالية ، وهذا ينبىء بمدى هلاكهم وتدميرهم .. وفى قوله : « فبعدا للقوم الظالمين » وضع للمظهر موضع المضمر ،

إذ الأصل : فبعدا لهم لتقدم ذكرهم، ولكن بلاغة هذا الأسلوب فى أنه يسجل ظلمهم ويؤذن بأن إبعادهم إنما هو من أجل هذا الظلم ...

معانى الآيات الكريمة : يخبر الله عز وجل أنه أنشأ بعد قوم نوح قرنا آخرين هم عاد – كما وضحنا – ، وأنه تبارك وتعالى أرسل فيهم رسولا فدعاهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، فليس لهم من إله غيره ، ولكن القوم كذبوا وبالغوا فى العناد والمكابرة ، وعلى الرغم من أن الله عز وجل أنعم عليهم وأترفهم فى الحياة الدنيا ، إلا أنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر فيجيبوا داعى الله ، بل كذبوه واستبعدوا ما جاء به،قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم » والرسول فى زعمهم لايكون بشرا ، ثم أكدوا بشريته،صرفا للناس عن قبول دعوته : « يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » بل أمعنوا فى صرف الناس وتهييجهم وإلهابهم : « ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون» ، وعلى الرغم من علمهم بصدقه وأمانته ورجاحة عقله ، فقد اتهموه بالكذب والافتراء على الله تعالى : « إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين » ، ولذا استفتح الرسول عليهم واستنصر ربه،«رب انصرنى بما كذبون» ، فأجاب الله دعاءه وانتقم من الذين كذبوه وظلموا « فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين » ، وفى إهلاكهم عظة لمن أراد أن يتعظ وعبرة لمن أراد أن يعتبر ،« وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .. »[1] .

* * *

---

(1) سورة هود آية ١٠٢ .

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ . ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ . يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » .

اللغة والإعراب : « قرونا آخرين » : قيل هم قوم صالح ولوط وشعيب ، كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى الأعراف وهود ، وقيل هم بنو إسرائيل ، والقرون : الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا والإفراد فيما سبق قريبا ، أنه أراد ههنا أمما متعددة وأراد هناك أمة واحدة ...

« ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » : من : زائدة لتأكيد معنى الاستغراق المستفاد من النكرة الواقعة فى سياق النفى ، والضمير فى : « أجلها » عاد إلى « أمة » باعتبار اللفظ ، وفى : « يستأخرون » عاد إليها باعتبار المعنى ، وحاصل المعنى : ما تهلك أمة من الأمم قبل مجىء أجلها وما تستأخر عن ذلك الأجل ساعة ...

« ثم أرسلنا » عطف على « أنشأنا » ، والعطف بثم لا يعنى أن إرسالهم

متراخ عن إنشاء القرون المذكورة جميعا ، بل المراد أن إرسال كل رسول متأخر عن إنشاء القرن السابق عليه ، حيث أرسل فى كل قرن رسولا ، وكأنه قيل : ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا بهم ،، فجملة : « ما تسبق ... » جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.. « تترا » من المواترة وهو التتابع مع فصل ومهلة . أما التتابع بلا مهلة فهو المداركة وقيل المواترة هى التتابع بغير مهلة فهى مرادفة للمداركة ، وقيل هى التتابع مطلقا فهى أعم من المداركة . والتاء الأولى فى لفظ « تترا » بدل من الواو ، كما فى تراث وتجاه، يقال: واتر مواترة أى تابع متابعة،ومنه الوتر،والعرب على عدم تنوينه ، فألفه للتأنيث كألف دعوى وذكرى ، فهو مصدر فى موضع الحال ، والمعنى : ثم أرسلنا رسلنا متواترين ،وقيل هو صفة لمصدر مقدرأى: أرسلناهم إرسالا متواترا ، وقيل مفعول مطلق لأرسلنا ، لأنه بمعنى : واترنا ... وقرأ بعضهم : « تترى » بالتنوين وهو لغة كنانة ، وعلى هذه القراءة يجوز كسر التاء الأولى ، لأن معنى « ثم أرسلنا » : واترنا ... « وجعلناهم أحاديث » : جمع أحدوثة وهو ما يتحدث به الناس تعجبا ، كأعاجيب جمع أعجوبة ، أى جعلناهم أحاديث يتحدث بها على سبيل التعجب ، ولا تقال الأحدوثة عند الأخفش إلا فى الشر ، يقال : صار فلان أحدوثة أى عبرة ، وكما فى قوله تعالى « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ »[1] ولا أرى وجها لهذا التقيد ، فقد يقال صار فلان حديثا حسنا ، ومنه قول ابن دريد :

وإنما المرء حديث بعـــده   فكن حديثا حسنا لمن روى

« بآياتنا وسلطان مبين » ، قالوا :المراد بالآيات : الآيات التسع التى بعث بها موسى عليه السلام وهى : العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ولا يصح عد فلق البحر منها هنا ، لأن

---

(١) سورة سبأ الآية ١٩

المراد بالآيات : الآيات التى كذبوا بها واستكبروا عنها ... والمراد بالسلطان المبين : الحجة الواضحة البينة ، قيل هى الآيات التسع نفسها ، وقيل أراد العصا خاصة لأنها أم الآيات ، فهو من عطف الخاص على العام ..

وقيل المراد بالآيات : التكاليف الدينية ، وبالسلطان المبين : المعجز ، وقال أبو حيان : يجوز أن يراد بالآيات : نفس المعجزات ، وبالسلطان المبين : كيفية دلالتها ، وقيل المراد بالسلطان : تسلط موسى عليه السلام ، فى المحاورة ، والاستدلال على الصانع الخالق عز وجل ، وقوة الجأش والإقدام ..

« وملئه » المراد : إما الأشراف وقد خصوا بالذكر ، لأن غيرهم تابع لهم ورأيه منوط بآرائهم ، وإما القوم ، فقد جاء استعمال الملأ بمعنى الجماعة مطلقا .. « عالين » : متكبرين أو متطاولين بالبغى والظلم كبرا وعنادا وتمردا ، والمراد : كانوا قوما عادتهم التعالى ، ومنه قوله تعالى : « وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ »[1] وجملة : « وكانوا قوما عالين » جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه .. « لبشرين » : ثنى « بشر » لأنه يطلق على الواحد ، كقوله تعالى « فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا »[2] وعلى الجمع كما فى قوله : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا .. »[3] . ولم يثن « مثل » نظراً إلى كونه فى حكم المصدر ، ولو ثنى المثل لجاز لأنه فى تأويل الوصف ، وكذا لو أفرد البشر لصح ، لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره .. « عابدون » : خادمون منقادون لنا كالعبيد ، والجار والمجرور : « لنا » يتعلق « بعابدون » ، وجملة : « وقومهما لنا عابدون » حال من فاعل « نؤمن » مؤكدة لإنكار الإيمان لهما ، بناء على زعمهم الفاسد أن الرياسة الدينية مقيسة على الرياسة الدنيوية .. وقد عدى الفعل : « نؤمن » باللام ،

---

(١) سورة يونس الآية ٨٣

(٢) سورة مريم الآية ١٧

(٣) سورة مريم الآية ٢٦ .

لأن المراد به التسليم والانقياد ، على نحو ما مر بك فى أول السورة الكريمة .
«وجعلنا ابن مريم وأمه آية» : أى : آية دالة على عظيم قدرتنا، بولادته منها من غير مسيس بشر ، فالآية أمر واحد مشترك بينهما ، ولذا أفردت ، وقيل إن الكلام على حذف مضاف أى : وجعلنا حال ابن مريم وأمه آية ، أو جعلناهما ذوى آية ، وقيل حذف من أحدهما لدلالة الآخر عليه والمعنى : وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية ، جعل عليه السلام آية لما ظهر على يديه من الخوارق ، وجعلت أمه آية ، لأنها ولدت من غير مسيس بشر ، وقيل لأنها تكلمت فى صغرها أيضا ، وهذا معنى قوله تعالى : « قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »[1] روى أنها قالت ذلك ولم تلتقم ثديا قط .

« وآويناهما إلى ربوة » أى : جعلناهما يأويان إليها ، والربوة هى ما ارتفع من الأرض دون الجبل ، واختلف فى المراد بها هنا فقيل هى دمشق ، وقيل هى الرملة بفلسطين ، وقيل هى بيت المقدس ، وقيل هى الاسكندرية ، وذكروا فى سبب إيوائهما أن ملك ذلك الزمان عزم على قتل عيسى عليه السلام ففرت به أمه إلى أحد هذه الأماكن ... « ذات قرار » : أى : مستقر من الأرض ، والمراد أنها فى واد فسيح ، تنبسط به نفس من يأوى إليه لوجود الثمار والزروع ، فهى محل صالح لقرار الناس ، لما فيه من الزروع والثمار .. « ومعين » على وزن « فعيل » أى : جار ، من معن بمعنى جرى ، وأصله الإبعاد فى الشىء ، ومنه أمعن النظر ، فهى صفة لموصوف محذوف والتقدير : ذات قرار وماء جار ، يقال : معن الشىء معانة أى : كثر ، ويجوز أن يكون « معين » من الماعون ؛ وإطلاقه على الماء الجارى لنفعه ، وقيل إن وزنه : « مفعول » كمخيط على أن الميم زائدة من عانه أدركه بعينه ، كركبه إذا ضربه بركبته ؛ وإطلاقه على الماء الجارى ؛ لأنه فى الأغلب يكون ظاهرا مشاهدا بالعين ؛ ووصف الماء بذلك لأنه الجامع لانشراح الصدر

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٧

وطيب المكان وكثرة المنافع ... « يا أيها الرسل » قيل هو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول مارزقا ، كأنه قيل : آويناهما قائلين لهما هذا ، أى : معلميهما أن الرسل جميعا خوطبوا بهذا ، فكلا واعملا اقتداء بهم ، وقيل هو نداء لعيسى عليه السلام وأمر له بأن يأكل من الطيبات ، وقيل هو نداء لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وخطاب له والجمع للتعظيم ... وقيل هو حكاية له عليه الصلاة والسلام على وجه الإجمال ، لما خوطب به كل رسول فى عصره ، جيء بها إثر حكاية إيواء عيسى وأمه ، للإيذان بأن إباحة النعم والطيبات شرع قديم ، وليس من خصائص عيسى عليه السلام ... والمراد بالطيبات : ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكل والفواكه ، ويدل على ذلك السياق « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ، فالأمر للإباحة والترفيه ، وفيه إبطال الرهبانية التى ابتدعها النصارى ...

وقيل المراد بالطيبات : ما أحل والأمر تكليفى وأيد بتعقيبه بقوله : « واعملوا صالحا » ، وما جاء من أحاديث تحث على الطيب ، وتحذر من الخبيث، ولعل المراد هو الأول ، ولذا قدم الأمر بأكل الطيبات ليلى قوله : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ، وجاء بعده الأمر بالعمل الصالح ، حثا على شكر النعمة ... على أنه لاتنافى بين المعنيين ، فأكل ما يستطاب ويستلذ ينبغى أن يكون طيبا حلالا لاخبيثا حراما ... « أمتكم » أى : ملتكم وشريعتكم ، أو جماعتكم ، والخطاب للرسل عليهم السلام ، وقيل عام لهم ولغيرهم ، والجملة معطوفة على جملة : « إنى بما تعملون عليم » ، وقيل الواو ليست للعطف والجملة بعدها مستأنفة غير معطوفة على ما قبلها ... « أمة واحدة » حال ، العامل فيها معنى الإشارة أى أشير إليها فى حال كونها شريعة متحدة فى الأصول التى لاتتبدل بتبدل الأعصار ...

واسم الإشارة « هذه » مشار به إلى الأمم الماضية للرسل ، أو إلى الملة والشريعة تجسيدا لها وتشخيصا ... « فاتقون » : الفاء لترتيب الأمر بالتقوى

على ما قبله، من كونه ربكم المختص بالربوبية أى : لاتفعلوا ما يوجب العقوبة فتشركوا بى غيرى، أوتخالفوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ... «فتقطعوا أمرهم» الفاء لترتيب عصيانهم على الأمر بالتقوى لزيادة تقبيحهم، والضمير يرجع إلى الأمة، إذا اعتبرت بمعنى الجماعة، وإلى أربابها إذا اعتبرت بمعنى الملة والشريعة وتقطع بمعنى قطع، والمراد بأمرهم أمر دينهم ... «زبرا» أى : قطعا وفرقا، جمع زبور بمعنى فرقة، ويؤيده أنه قرىء : «زبرا» بضم الزاى وفتح الباء، وهو مشهور ثابت فى جمع زبرة بمعنى قطعة، وقيل هو جمع زبور بمعنى كتاب، من زبرت بمعنى : كتبت، ويعرب إما مفعولا ثانيا لتقطعوا، لضمنه معنى جعلوا، وإما حالا والمعنى : جعلوا أمرهم بينهم قطعا أو كتبا متفرقة، أو تقطعوا أمرهم بينهم حال كونه قطعا أو كالكتب المفرقة ... «فذرهم فى غمرتهم» الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فى شأن قريش الذين تقطعوا فى أمر الدين الحق، والمراد بالغمرة : الجهالة والضلالة والحيرة والغفلة، وأصل الغمرة : الستر، ويطلق على الماء الذى يغمر القامة، وعلى الماء الكثير الذى يغطى الأرض، وغمر الراء : الذى يشمل الناس بالعطاء، ويطلق أيضا على الحقد، وعلى ما يغمرك ويعلوك، والمراد بغمرتهم فى الآية - كما قلنا - جهالتهم وغفلتهم ...«حتى حين» أى : حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل، وهو يوم بدر، على ما روى عن مقاتل، أوحتى يموتوا على الكفر فيعذبوا فى النار ...

«أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات» : ما اسم موصول، و«من مال وبنين» بيان لها، وجملة : «نسارع لهم فى الخيرات» خبر أن، والعائد على الموصول محذوف، والتقدير : نسارع لهم به، وقيل إن ما مصدرية، والمصدر المؤول اسم أن، وخبرها «نسارع» حذفت منه أن فارتفع، والمعنى : أيحسبون أن إمدادنا لهم من مال وبنين مسارعة منا لهم فى الخيرات ... وقيل إن «ما» حرف، فهى كافة لأن عن العمل، والصواب هو الأول ... وقوله : «بل لايشعرون» عطف على جواب مقدر ينسحب عليه

الـكلام ، والتقدير : كلا لانفعل ذلك ، بل هم لايشعرون بشيء أصلا ، فهم كالبهائم التى لاتفهـم ولاتعقل ، لأن ما خولنا هم من النعم وأمددناهم به من الخيرات ، إنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثما ، كما قال تعالى :

« إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ »[1] ...

الأسرار والمزايا البلاغية : قوله : « كلما جاء أمة رسولها كذبوه » استئناف مبين لمجيء كل رسول إلى أمته ، ولما وقع منهم وصدر عنهم عند التبليغ ، وإضافة الرسول إليهم تدل على أن كل رسول جاء أمته الخاصة به ، وتنبيء وتشعر بكمال شناعة المكذبين وشـدة ضلالهم ، حيث كذبوا رسولهم المعاين لهم ، والذى يعرفون صدقه وأمانته ... وإضافة الرسل إلى الله عز وجـل فى قوله : « ثم أرسلنا رسلنا » ، وإلى القوم هنا مع المجيء : « كلما جاء أمة رسولها » للإيذان بأن الإرسال الذى هو مبدأ الأمر منه تعالى ، والمجيء الذى هو منتهاه إليهم ...

وفى وصفهم بعدم الإيمان هنا « فبعدا لقوم لايؤمنون » ، وبالظلم فيما سبق « فبعدا للقوم الظالمين » ما يدل على دقة التعبير القرآنى ، وجمال نظمه ، فحيث اقتصر هنا على حكاية تـكذيبهم إجمالا ، اقتصر على وصفهم بعدم الإيمـان ، وحيث فصل هناك ، وأبرز ما وقـع منهم من الغلو فى التـكذيب والافتراء ، وتجاوز الحد فى الـكفر والعدوان ، وصفهم بالظلم ...

وفى قوله : (بآياتنا وسلطان مبين) المراد بالسلطان المبين عند جمـع من العلماء : العصا ، فيكون من قبيل عطف الخاص على العام ، وذلك لتفردها بالمزايا حتى صارت كأنها شيء آخر مغاير للآيات ...

وقـوله : (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، والغاية منها المسارعة إلى بيـان هلاك أولئك

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

القرون على وجه إجمالي .. وكذا قوله : « وكانوا قوما عالين » اعتراض بين المعطوف « فقالوا » وبين المعطوف عليه « فاستكبروا » ، والغرض من هذا الاعتراض إبراز استكبارهم وتقريره .. وفي قوله : « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » : ثنى « بشرين » على الرغم من كونه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره ، وأفرد « مثل » على الرغم من جـــواز تثنيته وجمعه ، فإنه جاء مثنى في قوله : « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ »[1] ، ومجموعا في قوله « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »[2] ، والغرض من ذلك هو الإشارة بتثنية « بشرين » إلى قلتهما وانفرادهما عن قومهما ، مع كثرة الملأ واجتماعهم ، والإشارة بإفراد « مثل » إلى شدة تماثلهم حتى كأنهم مع البشرين شيء واحد ، وهذا أدل على ما عنوه من تنافي الرسالة والبشرية ، فالرسول - في زعمهم - لا يكون بشرا .. وفي « عابدون » استعارة تبعية ، حيث استعيرت العبادة للخدمة ، واشتق من العبادة « عابدون » بمعنى « خادمون منقادون » ، وجوز البعض : الحمل على حقيقة العبادة ، لأن فرعون كان يدعي الألوهية ، فادعى للناس العبادة على الحقيقة قال تعالى : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي »[3] وقيل إن العابد بمعنى الخادم حقيقة لا مجاز ... وفي « لنا عابدون » قصر لعبادة قومهمـــا على كونها لهم ، والمعنى : وقومهما لنا عابدون لا لهما .. ولم يذكر « هارون » مع « موسى » عليهما السلام في قوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب » اقتصارا على من هو الأصل ، ولأن الكتاب نزل على موسى بالطور وهارون كان قد خلفه في قومه .. والتعبير عن « عيسى » عليه السلام « بابن مريم » وعن مريم « بأمه » في قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية ، فإن نسبته عليه السلام إليها مع أن النسب يكون إلى الآباء ، دالة على ألا أب له ، وتقديمه عليه السلام هنا لأصالته فيما ذكر من كونه آية ، وتقديم « أمه » في قوله تعالى : « وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ »[4]

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ .
(٢) سورة محمد الآية ٣٨ .
(٣) سورة القصص الآية ٣٨ .
(٤) سورة الأنبياء الآية ٩١ .

لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ ..وفى قوله : « ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم » ، إيجاز قصر ، حيث عبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع على وجه الإجمال حكاية لما خوطب به كل رسول فى عصره ... والأمر فى قوله : « كلوا » للإباحـة ، إذ المراد بالطيبات : ما يستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه ، على نحو ما بينا ، وتقديم الأمر بالأكل ليقع بعد قوله : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » فإنه أوفق له ، ولأن أكل الحلال معين على العمل الصالح ، وأيضا لأن فى تأخير الأمر بالعمل الصالح حثا على شكر النعم التى أنعم الله بها على رسله وعباده ، والتى تقدمت فى قوله : « كلوا من الطيبات » .. وجملة «إنى بما تعملون عليم » بيان وتعليل للأمر السابق ، والتحذير فيه للرسل عليهم السلام فى الظاهر والمراد أتباعهم .. والإشارة إلى الملة والشريعة فى قوله : « إن هذه » بيان لـكمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة المحسوسة ..

وفى قوله : « وأنا ربكم فاتقون » .الخطاب للرسل والأمم جميعا،على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج والإلهاب ،والدوام على تحقيق الفعل ،وفى حق الأمة للتحذير والإيجاب،وفيه وفى الأوامر المتقدمة دلالة على أن الرسل فى منزلتهم العالية ومرتبتهم السامية يؤمرون وينهون ،وبذا تبقى الألوهية فى مرتبتها العليا التى لا تدانيها مرتبة مهما سمت ،والفاء لترتيب الأمر أو وجوب الامتثال له،على ما قبله من اختصاص الربوبية به سبحانه وتعالى ، واتحاد الأمة فإن كلا منهما موجب للاتقاء حتما .. « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا .. » الفاء تؤذن بأن تقطعهم قد حدث عقب الأمر وفيه مبالغة فى ذمهم ، ولا يخفى عليك الالتفات من الخطاب فيما سبق إلى الغيبة هنا ، وهذا الالتفات ينبىء بابتعادهم عن المنهج الحق ، فلم يعودوا أهلا للخطاب ولذا تخلى الله عز وجل عنهم ، فأبعدوا وتخلفوا ، وغابوا عن ساحة الحضور .. والضمير فى « تقطعوا » يعود إلى « الأمة » فإن كانت بمعنى الجمـــاعة فالأمر واضح ، وإن كانت بمعنى الملة ، فالمراد أربابها ، أو المعنى على الاستخدام ،

حيث ذكر اللفظ بمعنى ، وعاد إليه الضمير بمعنى آخر ... وقد جاء هنا الأمر بالتقوى وعطف عليه التقطع بالفاء : « وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا » وهذا أبلغ فى التخويف والتحذير ، وأقوى فى الذم والتقبيح ، وفى سورة الأنبياء جاء الأمر بالعبادة وعطف التقطع بالواو : « وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا .. »[1] لأن المقام هنا يقتضى شدة التحذير والتخويف ، حيث جاءت الآية عقب إهلاك طوائف كثيرة ، قوم نوح والأمم من بعدهم ، وفى الأنبياء وإن تقدمت قصة نوح وما قبلها وما بعدها من القصص ، إلا أنه قد جاء قبل الآية ما يدل على الإحسان واللطف التام،فى قصة أيوب وزكريا ومريم ، فناسب ذلك ذكر الأمر بعبادة من هذه صفته تبارك وتعالى،أما هنا فالملائم ذكر الأمر بالتقوى .. « فذرهم فى غمرتهم حتى حين » تنكير الحين وإبهامه يدل على شدة التهويل والتفظيع لما سيحل بهم من عذاب ، والأمر« فذرهم » يدل على تماديهم فى العناد والمكابرة وشدة إعراضهم عن الحق،وفى « غمرتهم » استعارة تصريحية ، حيث استعيرت الغمرة للجهالة بجامع الغلبة والاستهلاك فى كل ، ويجوز جعلها استعارة تمثيلية حيث شبهت حالتهم مع ما هم عليه من محاولة الباطل والانغماس فيه بحال من يدخل فى الماء الغامر للعب ،والجامع تضييع الوقت مع الكدح فى العمل،وهذا يلائم ما قبله : « كل حزب بما لديهم فرحون » حيث جعلوا فرحين ولاعبين عتوا وغرورا ...

معانى الآيات الكريمة : يخبر الله عز وجل أنه أنشأ بعد هلاك عاد قوم هود أمما أخرى هم قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ، كما جاء فى سورة الأعراف وسورة هود ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وتلك الأمم أرسل الله عز وجل إليهم الرسل ، فجاء إلى كل أمة رسولهم ، ولكنهم كذبوا وتمادوا فى ضلالهم ، فأهلكهم الله وجعلهم أحاديث ، فبعدا لهم وسحقا ، ثم أرسل سبحانه وتعالى

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٢ ، ٩٣ .

موسى وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج والبراهين القاطعة ، فأعرضوا عن الآيات وكذبوا واستكبروا وقالوا : « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ » ، أنكروا رسالتهما لكونهما بشرين ، كما أنكرت الأمم السابقة بعثة الرسل من البشر ، تشابهت قلوبهم ، فأغرقهم الله فى اليم ونجى موسى ومن آمن معه ، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور « **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** »(١) ... ثم يشير سبحانه وتعالى إلى قصة عيسى عليه السلام ، وأنه تبارك وتعالى جعله وأمه آية ، وآواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وأمر الرسل - كما أمر عباده الصالحين - أن يأكلوا من الطيبات التى أحلها لهم ، وأن يشكروه على نعمه بالعمل الصالح فإنه عليم بذات الصدور ، وقد ثبت عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياأيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم » وقال : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** »(٢) ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » ... ثم يذكر سبحانه وتعالى أن شريعة الأنبياء أصلها واحد ، وهو الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا ، وترك عبادة الأوثان ، فإنه ربهم ، خالقهم وخالق ما ينفعهم ويصلح شأنهم ، فليتقوه وليحذروا عذابه ، ولكن الأمم كذبت رسلها وأعرضوا عن آيات ربهم وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، فرحين لاهين ، ولذا توعدهم الله عز وجل آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم « فذرهم فى غمرتهم حتى حين » .. « **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** »(٣) ..

---

(١) سورة القصص الآية ٤٣ . (٢) سورة البقرة الآية ١٧٢ .

(٣) سورة الحجر الآية ٣ .

« فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً »[1] ، هؤلاء الكفرة اعتقدوا أن ما هم فيه من رخاء ، وما يمدهم الله به من الأموال والبنين ، لكرامتهم عليه ومعزتهم عنده ، وأنه عز وجل يسارع لهم فى الخيرات .. كلا لقد أخطأوا الاعتقاد ، فليس الأمر كما زعموا وقالوا : « نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ »[2] ، بل إن الله عز وجل يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويمهلهم ويملى لهم ، ولذا قال عز وجل : « بَلْ لَا يَشْعُرُون » ، كما قال تعالى : « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[3] ، وقال عز وجل : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ »[4] ، وقال عز قائلا : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً .. »[5] .

* * *

« إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ . وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُون . حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي

---

(١) سورة الطارق آية ١٧ .
(٢) سورة سبأ آية ٣٥ .
(٣) سورة التوبة آية ٥٥ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٧٨ .
(٥) سورة سبأ الآية ٣٧ .

تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ . » .

اللغة والإعراب : الإشفاق : الخوف ، تقول أنا مشفق من هذا الأمر أى : خائف ، والخشية أيضاً : الخوف ، فهما بمعنى واحد كررا للتأكيد، وقيل لا تكرار ، وذلك بحمل الخشية على العذاب ، والمعنى : والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، أو حمل الإشفاق على ما هو أثر له ، وهو الدوام على الطاعة ، والمعنى : والذين هم من خشية ربهم دائمون على طاعته ، وقيل المراد بالإشفاق كمال الخوف ، وعليه فلا تكرار أيضاً ... « بآيات ربهم يؤمنون » : الجار والمجرور متعلق بقوله « يؤمنون » : والباء للملابسة ، والمراد بالآيات : الكونية والتنزيلية ، ومعنى الإيمان بها : التصديق بمدلولها، إذ لا مدح فى التصديق بوجودها ... « لا يشركون » أى : يخلصون له العبادة ، قالوا : المراد نفى الشرك الخفى كالرياء بالعبادة ، وقيل المراد التعميم أى : لا يشركون به تعالى شركا جليا ولا خفيا، فالآية السابقة وصف لهم بتوحيد الربوبية، وهذه وصف لهم بتوحيد الألوهية، ولم يقتصر على الوصف الأول ، لأن أكثر الكفار متصفون بتوحيد الربوبية : « **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** »[1] . . . « **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** »[2] .

« يؤتون ما آتوا » : من الإيتاء أى : يعطون ما أعطوا من الصدقات، وقرىء : « يأتون ما أتوا » من الإتيان أى : يفعلون من العبادات ما فعلوا وقلوبهم وجلة أى : خائفة ألا يقبل منهم وألا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا . . . وجملة : « وقلوبهم وجلة » فى موضع الحال من الضمير الأول . . . « أنهم إلى ربهم راجعون » : تعليل لوجل قلوبهم بتقدير اللام التعليلية أو من الابتدائية التى يتعدى بها الوجل ، والمعنى وقلوبهم وجلة من عدم القبول على الوجه اللائق ،

---

(١) سورة الزمر الآية ٣٨ (٢) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

لأنهم راجعون إليه تعالى ، أو وقلوبهم وجلة من أن رجوعهم إليه عز وجل ، على أن مناط الوجل وسببه ألا يقبل ذلك منهم على الوجه المطلوب ، لا مجرد رجوعهم ، وقيل المعنى أن من اعتقد الرجوع إلى الجزاء والحساب ، وعلم أن المجازى والمحاسب هو الرب الذى لا يخفى عليه خافية ، لم يخل من وجل ... وجملة : « أولئك يسارعون » خبر « إن » المذكورة فى أول الآيات الكريمة ، وقرىء : « يسرعون » مضارع أسرع ، يقال أسرع إلى الشيء وسرع إليه بمعنى واحد ، « ويسارعون » أبلغ من « يسرعون » لأن المفاعلة تكون من اثنين فتقتضى حث النفس على السبق... ومعنى « يسارعون فى الخيرات » يسارعون فى النيل والفوز بالخيرات، التى من جملتها الخيرات العاجلة ، الموعودة على الأعمال الصالحة ، كما فى قوله تعالى : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ »[1] ، وقوله عز قائلا : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »[2] ، أثبت لهم ما نفى عن الكفرة فيما سبق ... وقيل المراد: يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها ، والأول أولى لمطابقته للآية المتقدمة ، ولأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين ... « وهم لها سابقون » الضمير يرجع إلى الخيرات والجار والمجرور يتعلق بقوله : « سابقون » وهو إما منزل منزلة اللازم أى: فاعلون السبق، أو مفعوله محذوف، والمعنى: سابقون الناس أو الكفار ، والسبق يتعدى بإلى وباللام يقال: سبق إلى كذا وله، وقيل اللام زائدة للتقوية والمعنى : وهم إياها سابقون أى : ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا، والمراد بسبقهم إلى الخيرات : ظفرهم بها ونيلهم إياها .. وجوز أن يراد بالخيرات : الطاعات ، وتكون اللام إما للتعليل ، والمعنى : يرغبون فى الطاعات والعبادات ، وهم لأجلها فاعلون السبق أو سابقون الناس إلى الثواب والجنة ، أو يكون الجار والمجرور «لها» خبر المبتدأ ، و «سابقون» خبراً بعد خبر ، ومعنى « هم لها » : أنهم معدون لفعل مثلها من الأمور العظيمة،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٨ (٢) سورة العنكبوت آية ٢٧ .

تقول لمن تطلب منه حاجة لا ترتجى من غيره: أنت لها، وهذا من بليغ الكلام وجيده، ومنه قول الشاعر:

مشـــكلات أعضلت ودهت يا رسول الله أنت لهـــا ..

« لا نكلف نفساً إلا وسعها » : الوسع : الطاقة، سمى وسعاً لأنه يتسع على فاعله فعله، ولا يضيق عليه، فمن لم يستطع الصوم يفطر، ومن لم يستطع القيام يصل قاعداً، ومن لم يستطع القعود يومىء، والجملة مستأنفة، سيقت للتحريض على ما وصف به أولئك المشار إليهم، من فعل الطاعات، المؤدى لنيل الكرامات، ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أى: عادتنا جارية على ألا نكلف نفساً إلا ما فى وسعها وقدر طاقتها، فالمراد أن هذا الذى وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أو أن المكلف إذا لم يبلغ أن يكون على صفة هؤلاء السابقين، بعد أن يستفرغ وسعه، ويبذل طاقته فلا عليه، فقد فعل ما يستطيع فعله، وهو عنـــدئذ من المقتصدين، وأولئك هم السابقون، قال تعالى: « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ »[1] .. وقوله: « ولدينا كتاب ينطق بالحق » من تمام ما قبله من نفى التكليف بما فوق الوسع، والمراد بالكتاب: صحائف الأعمـــال التى يقرأونها عند الحساب، ومعنى « ينطق بالحق »: يظهر به الحق المطابق للواقع دون زيادة ولا نقص، فيجزون على ما عملوا، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ومثله قوله تعالى: « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[2]، وقيل المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، فإنه قد كتب فيه كل شىء، وقيل المراد بالكتاب القرآن، والأول أولى، والجار والمجرور « بالحق » يتعلق بينطق أو بمحذوف يقع حالا من فاعل ينطق، والمعنى: ينطق

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٢ (٢) سورة الجاثية الآية ٢٩ .

متلبساً بالحق ... « وهم لا يظلمون » جملة مبينة لما قبلها ، من تفضله عز وجل ، وعدله فى جزاء عباده ، أى: لا يظلمون بنقص ثواب أو بزيادة عقاب، بل يجزون بقدر أعمالهم التى نطقت بها الصحائف بالحق ، ومثله قوله تعالى : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً »(١) ، وجوز أن تكون تقريراً لما قبلها ، أى : لا يظلمون بتكليف ما ليس فى وسعهم ولا يظلم غير السابقين بناء على قصور أعمالهم عن أعمال السابقين ، بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها ... « بل قلوبهم فى غمرة من هذا » إضراب عما قبله ورجوع إلى بيان حال الكفرة ، فالضمير للكفرة أى : بل قلوب الكفرة فى غفلة وغطاء وعماية عن هذا الذى بين فى القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بالحق ، ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، فالإشارة قيل إلى القرآن الكريم وما بين فيه مطلقا ، وقيل : إلى ما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة ، وقيل : إلى الدين بجملته ، وقيل: إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والأول أظهر ، وقد تقدم بيان معنى الغمرة ... « ولهم أعمال من دون ذلك » أى: ولهم أعمال سيئة كثيرة ، من دون ذلك الذى ذكر ، وهو كون قلوبهم فى غمرة مما ذكر ، وتلك الأعمال هى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها طعنهم فى القرآن الكريم المشار إليه فى قوله تعالى : « مستكبرين به سامرا تهجرون » ، وقيل : المراد بالغمرة: الكفر والشرك، و « ذلك » إشارة إليه ، والمعنى : بل قلوبهم فى كفر بهذا ، ولهم أعمال دون الكفر ، وقيل : إن « ذلك » مثل « هذا » وقد أشير بهما إلى ما وصف به المؤمنون من الأعمال الصالحة ، والمعنى: ولهم أعمال متجاوزة متخطية لما وصف به المؤمنون ، وهى أضداد ما وصفوا به مما وقع فى حيز الصلات ، وهذا غاية الذم لهم ... « هم لها عاملون » جملة مقررة لما قبلها ، أى : مستمرون على فعلها ، قد اعتادوا عليها ، فلا يفطمون عنها حتى تحق عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم ، والضمير فى « لها » معمول لاسم الفاعل « عاملون »

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩ .

والمعنى : هم عاملوها ، وقد قدم الضمير ودخلت عليه اللام للتقوية والتوكيد...
« حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب » اختلف العلماء فى معنى « حتى » فى هذه الآية فقيل : هى التى يبتدأ بعدها الكلام وهى مع ذلك غاية لما قبلها ، كأنه قيل: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى أن إذا أخذنا .. وقيل : هى ابتداء لا غير، لأن « إذا » الأولى والثانية يمنعان من أن تكون غاية « لعاملون » .. وقيل هى غاية عاطفة لما بعدها على ما قبلها ، والأول أولى قبولا ، و « إذا » الأولى شرطية ، وهى ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، وشرطها « أخذنا » ، وهى مضافة إليه ، وجزاؤها « إذا هم يجأرون » ، وهى معمولة له ، منصوبة به ، و «إذا» فيه فجائية نائبة مناب الفاء ، والجملة الشرطية مبينة لما قبلها ، والضمير فى «مترفيهم» راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار، والمراد بالمترفين: المتنعمين منهم وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنين، أو المراد: الرؤساء منهم، والمراد بالعذاب: ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، أو عذاب الجوع الذى أصابهم بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» ، وقيل المراد بالعذاب عذاب الآخرة، ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجؤار، إنما يكون عند عذاب الآخرة ، حيث يفاجئون عنده بالجؤار ، فيجابون بالرد ، والإقناط من النصر ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد عنده جؤار ، حسبما ينبىء قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ » فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر حتما ، وأما عذاب الجوع فإن قريشا وإن تضرعوا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن لم يرد عليهم بالإقناط ؛ حيث روى أنه عليه الصلاة والسلام ، دعا بكشفه ، فكشف عنهم.. وقد أجيب عن هذا الترجيح بأن الجؤار فى اللغة : الصراخ والصياح ، قال الجوهرى : الجؤار مثل الخوار ، يقال جأر الثور يجأر أى : صاح ، وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عندما عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع فى سنى الجوع ، وليس الجؤار هاهنـــا مقيداً بالجؤار الذى هو التضرع بالدعاء ،

وخلاصة القول أنه إذا أريد بالجؤار الصراخ مطلقا، صح أن يراد بالعذاب : عذاب بدر أو الجوع أو عذاب الآخرة ، وإن أريد به الصراخ مع الاستغاثة والتضرع انصرف إلى عذاب الآخرة فحسب . ، وضميرا الجمع فى قوله : « إذاهم يجأرون » راجعان إلى كفار مكة باعتبار من بقى منهم بعد أخذ المترفين بالعذاب .. « لا تجأروا اليوم » مقول لقول محذوف تقديره : قلنا لهم ، أو يقال لهم ، أو قل لهم يا محمد ، لا تجأروا اليوم ، والجملة مسوقة لتبكيتهم وقطع أطماعهم ، وبيان عدم انتفاعهم بجؤارهم ، وفى ذكر « اليوم » زيادة فى التيئيس وتهويل العذاب .. « إنكم منا لا تنصرون » تعليل للنهى عن الجؤار ببيان عدم نفعه ، و « من » فيه ابتدائية أى :لا يلحقكم منا نصر ينجيكم مما أنتم فيه ، ويجوز أن تكون صلة للنصر على تضمينه معنى المنع أو التجوز به عنه ، والمعنى : إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم .. « قد كانت آياتى تتلى عليكم » أى: قبل أن يأخذ مترفيكم العذاب ، والمراد بالآيات : آيات القرآن الكريم .. « فكنتم على أعقابكم تنكصون » أى : تعرضون عند سماعها أشد الإعراض، بدل أن تصدقوا وتعملوا بموجباتها ، وأصل النكوص : الرجوع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

زعموا أنهم على سبل الحق وأنا نكص على الأعقاب

والأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر الرجل ، ورجوع الشخص على عقبه رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال : رجع عوده على بدئه ،وجعل بعضهم التقييد بالأعقاب من باب التأكيد كما تقول : أبصرته بعينى ، وذقته بفمى ، وسمعته بأذنى بناء على أن النكوص : الرجوع القهقرى وعلى الأعقاب . وقرأ على كرم الله وجهه : « على أدباركم تنكصون » بضم الكاف،والجار والمجرور« على أعقابكم» يتعلق بالفعل تنكصون ، أو بمحذوف ، وقع حالا من فاعله .والتقدير : فكنتم تنكصون راجعين متقهقرين على أعقابكم ... « مستكبرين به »:الضمير فى «به» راجع إلى البيت العتيق وقيل للحرم ، والباء للسببية ، والذى سوغ الإضمار قبل

الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد ، لأنا أهل الحرم وخدامه ، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وقيل إن الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده أن في قوله تعالى : « قد كانت آياتى تتلى عليكم » دلالة عليه - عليه الصلاة والسلام - فهو الذى يتلو عليهم تلك الآيات ، وقيل الضمير يعود إلى القرآن المفهوم من الآيات ، أو عليها باعتبار تأويلها به ، والباء على هذين القولين إما للتعدية على تضمين الاستكبار معنى التكذيب ، أو جعله مجازا عنه ، وإما للسببية ،لأن استكبارهم ظهر ببعثته صلى الله عليه وسلم ، والجار والمجرور « به » يتعلق إما بستكبرين أو بسامرا أو بتهجرون ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن ، والطعن فيه ، وفى النبى صلى الله عليه وسلم ، و « سامرا »منصوب على الحال وهو اسم جمع كالحاضر والباقر،قال الواحدى: السامر الجماعة يسمرون بالليل أى يتحدثون ، وقيل : هو مصدر وقع حالا ، ومجىء المصدر على وزن « فاعــل » نادر ؛ ومنه العاقبة والعافية ، والسمر فى الأصل : ظل القمر ، وسمى بذلك لما فى مطلعه من سمرة ، ويطلق على ما يقع على الشجر من ضوء القمر ؛ وعلى سواد الليل ؛ ثم أطلق على الحديث بالليل ..

« تهجرون » من الهجر بفتح فسكون ، بمعنى القطع والترك ، والجملة فى موضع الحال أى : تاركين الحق أو القرآن أو النبى صلى الله عليه وسلم ، أو تهجرون البيت ولا تعمرونه بما يليق به من العبادة ، وجاء الهجر بمعنى الهذيان يقال : هجر المريض يهجر هجرا إذا هذى ، والمعنى على ذلك تهذون فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أو فى شأن القرآن أو مايعم جميع ذلك ،وقيل ما كان بمعنى الهذيان هو الهجر بفتحتين ،وجوز أن يكون من الهجر بضم فسكون وهو الكلام القبيح ، يقال : هجر فلان إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد ، وأهجر المريض إذا أتى بذلك من غير قصد ، فالهجر بضم فسكون : الكلام المهجور لقبحه ولفحشه ... وقرىء « سمرا » بضم السين وفتح الميم المشددة ، وسمارا ، كما قرىء « تهجرون » بضم التاء وكسر الجيم من أهجر أى : أفحش فى منطقه ،

و « تهجرون » بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم المشددة من هجر بالتضعيف و « يهجرون » بالياء ، وفيه التفات ، و « سامرا تهجرون » حالان ـ كما قلت ـ من فاعل تنكصون ، أو من الضمير فى « مستكبرين » ...

الأسرار والمزايا البلاغية : فى إيثار التعبير بالمضارع دون الاسم فى قوله تعالى : « بآيات ربهم يؤمنون » وقوله : « بربهم لا يشركون » وقوله: «يؤتون ما آتوا » وقوله : « يسارعون فى الخيرات » دلالة على التجدد والحدوث ، فهم كلما وقفوا على آية آمنوا بها وأحدثوا تصديقا بمدلولها، وكلما عن لهم وبدا لون من ألوان الشرك أعرضوا عنه وابتعدوا ، وكلما بدا لهم ولاح لون من ألوان الخير فهم يؤتونه ويسارعون إليه .. وفى إيثار التعبير بالاسم فى قوله تعالى : « من خشية ربهم مشفقون » وقوله : « أنهم إلى ربهم راجعون » وقوله : « وهم لها سابقون » دلالة على الثبوت والدوام والاستمرار .. والتعبير بالماضى مكان المضارع فى قوله : « آتوا » للدلالة على تحقق الوقوع إذ الأصـــل : والذين يؤتون ما يؤتون ، فقيل : « ما آتوا » إشارة إلى تحقق الإتيان ... وتكرار الرب فى المواضع الثلاثة الأخيرة ، والتعبير به دون الضمير للإشارة إلى معنى التربية ، والإشعار بعنوان الربوبية ، الذى يقتضى ويستلزم توحيد الألوهية ، فتلك الربوبية تصلح لأن تكون دليلا وعلة لتوحيد الألوهية .. وفى تكرار الموصول إيذان باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة ، وتنزيل لاستقلالها مـــنزلة استقلال الموصوف بها ، على الرغم من كون الموصوفين طائفة واحدة متصفة بما ذكر فى حيز الصلات من الأوصاف الأربعة، فتكرار الموصول يؤذن بما يكمن وراء كل صفة من محاسن ومزايا عديدة ، وينبئ بكمال هذه المحاسن وتمام تلك الفضائل ، وكأن كل صفة منها على حدة تغنى وتكفى لاستحقاق الموصوف بها عظيم الأجر وجزيل الثواب ...

والتعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد « أولئك يسارعون فى الخيرات » للإشعار ببعد رتبتهم فى الفضل وسمو منزلتهم ، وهو يقع هنا أفضل موقع حيث

جاء عقب عدة صفات فأشار إلى أن الموصوفين قد استحقوا الجزاء المذكور من أجل اتصافهم بالصفات المتقدمة ، على نحو ما رأيت فى قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون » ... وقوله : « إن الذين هم من خشية ربهم » إلى قوله : « أولئك يسارعون » استئناف مسوق لبيان من له المسارعة فى الخيرات ، إثر إقناط الكفار عنها ، وإبطال حسبانهم الكاذب أى : أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خصوصا ، دون أولئك الكفرة ، يسارعون فى نيل الخيرات ، التى من جملتها الخيرات العاجلة ، الموعودة على الأعمال الصالحة ... وفى قوله تعالى : « يسارعون فى الخيرات » أثبت للمؤمنين ما نفى عن الكفار بيد أنه غير الأسلوب حيث لم يقل : اولئك يسارع لهم فى الخيرات ، بل أسند المسارعة إليهم إيماء إلى استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ، وفضائل إقدامهم ، ومبادرتهم إلى الخير ، وإيثار التعبير بكلمة « فى » دون كلمة « إلى » للإيذان بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات ، لا أنهم خارجون عنها ، متوجهون إليها بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ »[1] ... وفى قوله تعالى : « ولدينا كتاب ينطق بالحق » مجاز بالاستعارة حيث شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، إذ الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق المحق ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه « ينطق » على سبيل الاستعارة المكنية ، وفى هذا مبالغة فى وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان ... وفى قوله : « ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » تهديد للعصاة ، وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم ... وفى قوله : « بل قلوبهم فى غمرة من هـــذا » استعارة تصريحية أصلية حيث شبه ماهم فيه من الجهالة والضلالة بغمرة الماء الذى يغمر الإنسان بجامع الغلبة والاستهلاك فى كل ... ويجوز جعلها استعارة تمثيلية حيث شبهت حالهم فى انصرافهم عن الحق وانغماسهم فى الكفر والمعاصى ، بحال من

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٣ .

يدخل فى الماء الغامر للهو واللعب ، بجامع تضييع الوقت مع الكدح والتعب فى كل ... وتنكير الأعمال فى قوله : « ولهم أعمال من دون ذلك » ينبىء بكثرتها وتنوعها أى : ولهم أعمال سيئة كثيرة متنوعة ... وفى قوله : « هم لها عاملون » أوثر التعبير بالاسم « عاملون » دون الفعل للدلالة على الاستمرار والدوام ، وقد قدم المفعول « الضمير » ودخلت عليه لام الجر للدلالة على التوكيد وتقوية الحكم ، إذ الأصل : هم عاملوها ... وفى قوله : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب » خصص المترفون بالأخذ مع أن العذاب لاحق بهم جميعا ، واقع على المترفين وغير المترفين ، لظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم غاية الظهور ، وكون ذلك أشق عليهم ، ولأنهم مع كونهم متمنعين محميين بحماية غيرهم من المتعة والحشم ، لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة ، فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم ، وفى التعبير بإذا ما يدل على تحقق وقوع الأخذ .. وقيل فى قوله تعالى : « إذاهم يجأرون » المراد بالجؤار : الجزع إذ هو سبب الصراخ والصياح ، فيكون مجازا مرسلا علاقته المسببية حيث عبر بالمسبب وأريد السبب ... وفى قوله تعالى : « ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » فصل بين الجملتين لكمال الاتصال ، إذ الجملة الثانية « هم لها عاملون » مقررة ومؤكدة للجملة الأولى « لهم أعمال من دون ذلك » .. وكذا فصل بين قوله تعالى « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب » وقوله عز وجل « هم لها عاملون » ، إذ الجملة الثانية مبينة للجملة الأولى فقد أبرزت ووضحت إلى أى مدى هم مستمرون فى أعمالهم السيئة ، ومواصلون لها ، إنهم مستمرون فيها إلى وقت أخذهم بالعذاب ، وعندئذ يجأرون ولات حين جؤار ، فالفصل بين الجملتين - كما ترى - لكمال الاتصال ... وفى قوله تعالى : « لا تجأروا اليوم » إيجاز بالحذف حيث أضمر القول والتقدير : قلنا لهم : لا تجأروا اليوم ، والمراد بنهيهم عن الجؤار : التبكيت والتقريع ، فالجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم ، وقد فصلت عما قبلها لكمال الانقطاع إذ الجملتان مختلفتان فى الإنشاء والخبر لفظا ومعنى ، أو للاستئناف البيانى - شبه كمال الاتصال - إذ الجملة الاولى : « إذاهم يجأرون » قد ابعث منها سؤال

تضمنته ، ووقعت الثانية جوابا له ، وكأن سائلا سأل : وهـــل ينفعهم ذلك الجؤار ، فأجيب : لن ينفعهم ،بل يقال لهم تبكيتا وتقريعا : لا تجأروا اليوم إنـكم منا لا تنصرون ... وقوله : « إنكم منا لاتنصرون » تعليـــل للنهى عن الجؤار ، وقيد النهى باليوم للتهويل والمبالغة فى عـدم نفع الجؤار وزيادة فى إقناطهم ... وفى قوله : « إنكم منا لاتنصرون » استعارة تبعية حيث استعير النصر للمنع ، واشتق منه « تنصرون » بمعنى تمنعون ، وذلك على جعل « من » صلة لتنصرون ، والمعنى : إنكم من عذابنا لاتمنعون ولاينفعكم جزعكم ، أما إذا جعلت « من » ابتدائية على أن المراد : إنكم لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب ، فلا مجاز عندئذ ... وفصل قوله عز قائلا : « قد كانت آياتى تتلى عليكم » عما قبله للاستئناف البيانى ، حيث وقع تعليلا لعدم لحوق النصر من جهته تعالى بهؤلاء الـكفرة الذين استمروا فى الـكفر والضلال حتى أخذهم العذاب... وفى قوله تعالى : « فكنتم على أعقابكم تنكصون » استعارة تمثيلية حيث مثلت حالتهم فى إعراضهم عن الحق بحال الراجعين القهقرى على الأعقاب . . . وفى قوله تعالى : « مستـكبرين به » وضع للضمير موضع الظاهر ؛ إذ الضمير فى «به» يرجع إلى البيت العتيق أو إلى الحرم ، ولم يتقدم لأيهما ذكر ، والذى سوغ الإضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستـكبار به ، وافتخارهم بولايته والقيام به ؛ وكانوا يقولون : لايظهر علينا أحد ونحن أهل الحرم وخدامه ، أما إذا جعل الضمير عائدا على القرآن أو على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا خروج على الظاهر عندئذ لفهم كل منهما من قوله تعالى : « قد كانت آياتى تتلى عليكم »...

معانى الآيات الـكريمة : لما نفى سبحانه وتعالى الخيرات الحقيقية عن الـكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هم أهل للخيرات عاجلا وآجلا، فوصفهم تبارك وتعالى بصفات أربع : —

الأولى : خوفهم من الله عز وجل، وإشفاقهم من عذابه ووجلهم من مكره، وذلك على الرغم من إحسانهم ، يقول الحسن البصرى : « إن المؤمن جمع

إحسانا وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا ، وصدق الله العظيم : «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ »[1] .

الثانية : إيمانهم بآيات الله الشرعية والكونية ، وتصديقهم بكونها دلائل وأن مدلولها حق ، ويقينهم بأن ما شرعه الله حق ، فهو إن كان أمرا فما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيا فما يكرهه ويأباه . .

الثالثة : ابتعادهم عن الشرك بأنواعه ظـاهراً وخفيا ، فهم يعلمون أنه لا إله إلا الله ولا نظير له ولا مثيل فلا يعبدون غيره ولا يشركون به أحدا . .

الرابعة : أنهم يعطون ما يعطون وهم خائفون وجلون ألا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط العطاء ، وهــذا من باب الإشفاق والاحتياط ، روى الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يارسول الله «يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة» ، أهو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ فقال لها صلى الله عليه وسلم : «لا يابنت الصديق ، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل » . . أولئك المتصفون بتلك الصفات السامية هم الذى يسارعون فى الخيرات ويبادرون بها وينافسون فيها ، وهم لهـا سابقون » فهم الذين قال الله عز وجل فى شأنهم : «وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ..»[2] يقول الإمام الفخر الرازى : واعلم أن ترتيب هذه الصفات فى نهاية الحسن ، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد ، الموجب للاحتراز عما لا ينبغى ، والثانية دلت على التصديق بوحدانية الله ، والثالثة دلت على ترك الرياء فى الطاعات ، والرابعة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله الوصول إليها . . ولما انجر

(١) سورة الأعراف آية ٩٩ .

(٢) سورة فاطر آية ٣٢ .

الـكلام إلى ذكر أعمال المـكلفين ، ذكر سبحانه وتعالى أنه لا يكلف أحداً من عباده مالا يطيق تفضلا منه ولطفاً ، وأن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس فى قدرتهم ، فجميع التكاليف فى طاقة المـكلفين وعلى المرء أن يبذل طاقته ويستفرغ وسعه للوصول إلى مراتب السابقين ، فإن فعل ذلك ولم يبلغ فى فعل الطاعات مراتبهم فهو من المقتصدين ، قال عز قائلا : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . »[1]. والله عز وجل لا يظلم أحداً من خلقه ، فهو يوم القيامة يحاسبهم على أعمالهم التى تنطق بها صحائفهم « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[2] ، « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً »[3] ..

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الـكفرة فى غفلة من هذا الذى بين فى القرآن ، وأن لهم أعمالا سيئة من دون ذلك أى من دون أعمال المؤمنين المذكورة ، أو من دون أعمال الـكفرة التى تقدم ذكرها ، أو من دون الشرك ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها طعنهم فى القرآن ، واستهزاؤهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافتخارهم بأنهم أهل البيت وخدام الحرم ، فقد كانوا يستكبرون بذلك ، ويسمرون فيه ويهجرونه فلا يعمرونه ، وسيظل هؤلاء الـكفرة فى غفلتهم وضلالهم وانغماسهم فى المعاصى والأعمال السيئة ، حتى يدهمهم العذاب ويأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وعندئذ يندمون ويجأرون إلى الله مستغيثين « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »[4] وفى هذا الوقت لا ينفع الندم ولا يغنى الجؤار ، لقد أمهلوا وأرخى لهم الزمام ، فلم يستجيبوا لداعى الحق واستمروا فى طغيانهم حتى حقت عليهم كلمة العذاب ، ولما وقع عليهم العذاب وعاينوه آمنوا به ولات حين إيمان ، لقد مضى الوقت الذى كان ينفع

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٢ .
(٢) سورة الجاثية الآية ٢٩ .
(٣) سورة الـكهف الآية ٤٩ .
(٤) سورة المؤمنون الآية ١٠٧ .

فيه الإيمان ويثمر، أما الآن فلا، «أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ»[١] ولهذا يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع والتبكيت: «لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ» «اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»[٢] لقد تليت عليكم الآيات فأعرضتم، ودعيتم إلى الإيمان فأبيتم «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ»، «ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ»[٣] فليس أمامكم الآن إلا ذوق العذاب، والمكث في جهنم والخلود «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ»[٤]..

* * *

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ. وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ. أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ. وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ. حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ

---

(١) سورة يونس الآية ٥١.
(٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٨.
(٣) سورة غافر الآية ١٢
(٤) سورة الزخرف الآية ٧٧

مُبْلِسُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ » ...

اللغة والإعراب : « أفلم يدبروا القول » الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، ويدبروا أصله : يتدبروا فقلبت التاء دالا وأدغمت الدال فى الدال . والمراد بالقول: القرآن ، والمعنى : أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبروا القرآن ليقفوا على ما فيه من وجـــوه الإعجاز ، ويعلموا أنه الحق من ربهم ، فيؤمنوا به ، ومثله قوله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »[1] . «أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين» أم منقطعة بمعنى بل والهمزة، ففيها معنى الإضراب والانتقال من الإنكار والتوبيخ بما ذكر، إلى الإنكار والتوبيخ بأمر آخر. وهو نفى المجىء المغاير لما جاء آباءهم الأولين، فالمراد إنكار وقوع هذا المجىء لا إنكار الواقع، أي: بل أجاءهم من الكتاب مالم يأت آباءهم الأولين، حتى استبعدوه وأنكروه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال ، فالمعنى أن مجىء الكتب من جهته تعالى ، إلى الرسل عليهم السلام ، لينذروا بها الناس ، سنة قديمة ، لا يكاد يتسنى إنكارها ، وأن مجىء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرونه ؟ وقيل : المقصود تقرير أنه لم يأت آباءهم الأولين رسول ، فلذلك أنكروه ، والمعنى : بل أجاءهم من الكتاب مالم يأت آباءهم الأولين ، فكان ذلك سببا لاستنكارهم القرآن ،

---

(١) سورة محمد الآية ٢٤ .

ومثله قوله تعالى : « لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ »[1] وقوله عز وجل : « وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ[2] » .

والرأى الأول وهو إثبات المجيء أرجح وأولى قبولا ، لأن الآية قيدت الآباء بالأولين ، وهؤلاء الأولون قد أنذروا وجاءتهم الرسل ، أما هم وآباؤهم الأقربون ، فلم يأتهم من نذير قبله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تأتهم من كتب يدرسونها ، وهذا ما تقرره الآيتان الكريمتان ، وأما قوله عز قائلا : « لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ »[3] فيحتمل المعنيين : الإثبات والنفى ، الإثبات على جعل « ما » موصولة أو مصدرية ، ويكون المراد بالآباء : الأولين ، والنفى على جعل « ما » نافية ، ويكون المراد بالآباء : الأقربين ...

وقيل المعنى : أفلم يتدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته وقصصه أن ينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ، أم جاءهم من الأمن مالم يأت آباءهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله ، فالمراد بآبائهم الأولين : المؤمنون كإسماعيل وعدنان وقحطان . وكأن وصفهم بالأولين على هذا : قيد لإخراج الأقربين كما ذكرت ... « أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » إضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر وهو إنكار الوقوع أيضاً ، والمعنى : بل ألم يعرفوه عليه الصلاة والسلام بالصدق والأمانة وحسن الأخلاق إلى غير ذلك من الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام ، والفاء فى : « فهم » للسببية ، لتسبب الإنكار عن عدم المعرفة ، فالجملة داخلة فى حيز الإنكار ، ومآل المعنى : هم عرفوه بالكمال اللائق بالأنبياء عليهم السلام

(١) سورة القصص آية ٤٦ (٢) سورة سبأ آية ٤٤ .
(٣) سورة يس آية ٦ .

فنكيف ينكرونه ... « أم يقولون به جنة » انتقال إلى توبيخ آخر ، والإنكار للواقع كالأول ، والمعنى : بل أيقولون به جنة أى : جنون مع أنهم قد علموا أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلا وأثقبهم رأيا وأوفرهم رزانة ، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصبا وحمية ... ثم أضرب سبحانه وتعالى عن ذلك كله فقال عز قائلا : « بل جاءهم بالحق » أى : ليس الأمر كما زعموا فى حق القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم بل جاءهم بالحق ، أى بالصدق الثابت الذى لا محيد عنه ، والمراد به التوحيد ، أو الدين القيم ، وهو دين الإسلام الذى تضمنه القرآن ، والجار والمجرور « بالحق » متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل « جاء » والمعنى : بل جاءهم متلبسا بالحق ... « وأكثرهم للحق كارهون » لما جبلوا عليه من التعصب وكمال الزيغ والانحراف عن الصواب والبعد عن الجادة ، ولذا كرهوا هذا الحق الواضح الجلى ، والظاهر أن الضمائر لقريش ، وتقييد الحكم بأكثرهم قيل لأن منهم من أبى الإسلام واتباع الحق حذرا من تعيير قومه ، وأن يقولوا صبأ ، أو ترك دين آبائه ، لا كراهة للحق من حيث هو حق ، وقد يرد على هذا القول بأن من أحب شيئاً كره ضده ، فمن أحب البقاء على الكفر فقد كره الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة ، ولذا قيل يحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفى ، أو يراد بالضمير فى « أكثرهم » الناس كافة لا قريش فقط ، فيكون نظير قوله تعالى : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ »[1] ، وقوله عز وجل : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ »[2] ويؤيد ذلك قوله عز قائلا : « بل جاءهم بالحق » ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم جاء الناس كلهم وبعث إلى الكافة ، وقد يقال : حيث كان المراد إثبات الكراهة للحق على سبيل الاستمرار ، وعلم الله أن فيهم من يؤمن ويتبع الحق لم يكن بد من تقييد الحكم بالأكثر ... « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٣ . (٢) سورة الشعراء آية ٨ .

والأرض ومن فيهن » لو حرف امتناع لامتناع أى : امتناع الجواب لامتناع الشرط ، فقد امتنع فساد السموات والأرض ومن فيهن لامتناع اتباع الحق أهواءهم ، والواو للاستئناف ، فالجملة مسوقة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يهوون ويريدون ، لكان ذلك مستلزما للفساد العظيم وخــــروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية ، والمراد بالحق : الحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل مآل المعنى : لو اتبع النبى صلى الله عليه وسلم أهواءهم فجاءهم بالشرك بدل ما أرسل به لأفسد الله العالم لفرط غضبه سبحانه وتعالى وهو فرض محال من تبديله عليه الصلاة والسلام ما أرسل به من عند ربه، وقيل المراد بالحق: القرآن أى لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد العالم ، وجوز أن يكون المراد بالحق : الأمر المطابق للواقع فى شأن الألوهية ، والمعنى لو وافق الأمر المطابق للواقع أهواءهم بأن كان الشرك حقا ، لفسدت السموات والأرض حسبما قرر فى قوله تعالى: « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا »[1] وقيل المراد بالحق: الله تعالى ، والمعنى عليه : لو كان الله تعالى يتبع أهواءهم ويفعل ما يريدون فيشرع لهم الشرك ويأمرهم به لم يكن سبحانه إلها فتفسد السموات والأرض ، أو لو فعل الله تعالى ما يوافق أهواءهم لاختل نظام العالم ، لأن آراءهم متناقضة وعقولهم فاسدة ، والذى تميل إليه النفس والمراد أولى بالقبول هو تفسير الحق بالدين الخالص الذى شرعه الله لعباده ، وأن المعنى : ولو ورد الحق متابعا لأهوائهم موافقا لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد ، والمراد بقوله : « ومن فيهن » : من فى السموات والأرض من المخلوقات وسبب فساد المكلفين من بنى آدم ظاهر ، وهو ذنوبهم التى من جملتها الهوى المخالف للحق ، وأما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع ، لأنهم مدبرون فى الغالب بذوى العقول ، فلما فسد ذوو العقول فسد ما عداهم ... « بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبلت عليه النفوس من الرغبة فيما فيه خيرها ، والمراد بالذكر : القرآن الذى هو فخرهم وشرفهم ،

---

(١) الأنبياء آية ٢٢ .

قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »[1] ، والمعنى : بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال بدل أن يعرضوا عنه ، وقيل المراد بذكرهم : القرآن الذى ذكر فيه ثوابهم وعقابهم ، وقيل المعنى : بذكر مالهم به حاجة من أمر الدين ، وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير ، وقرىء : « أتيتهم » بتاء التكلم بدل نون العظمة ، وبتاء الخطاب أى : أتيتهم يامحمد ، كما قرىء « بذكراهم » و « نذكرهم » بالنون والتشديد ، والجملة على هذه القراءة الأخيرة فى محل نصب على الحال ... « فهم عن ذكرهم معرضون » أى : فهم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص والهجر ، عن هذا الذكر المختص بهم معرضون ، لا يلتفتون إليه بحال من الأحوال ، وفى التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزه إلى غيره فهم معرضون عن ذكرهم وما فيه الخير لهم ، مقبلون على ماعداه ... « أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير » انتقال إلى توبيخ آخر ، فأم منقطعة ، والمعنى أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة خرجا فلذلك لم يؤمنوا ؟ والخرج : الأجر والجعل ، وهو الذى يكون مقابلا للدخل ، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك خرج ، والخراج : غالب فى الضريبة على الأرض ففيه إشعار بالكثرة واللزوم ، قال المبرد : الخرج مصدر والخراج اسم ، وسئل أبو عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال : الخراج ما لزمك ، والخرج ما تبرعت به ، واللزوم بالنسبة إليه تعالى تفضل ووعد ، وقيل : الخرج أعم من الخراج ، وساوى بينهما بعضهم ، وقرأ ابن عامر : « خرجا فخرج » ، وحمزة والكسائى : « خراجا فخراج » ، وجملة : « فخراج ربك خير » تعليل لنفى السؤال المستفاد من الإنكار ، أى : أنت لا تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة حتى يعرضوا عنك ويرفضوا دعوتك ، لأن ما رزقك الله فى الدنيا والآخرة خير من ذلك لسعته ودوامه ، وعدم تحمل منة الرجال منه ...

---

(١) سورة الزخرف آية ٤٤ .

« وهو خير الرازقين » جملة مقررة لما قبلها من كون خراجه سبحانه وتعالى خيراً ، فإن من كان خير الرازقين ، يكون رزقه خيراً من رزق غيره ... « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » أى إلى طريق واضحة تشهد العقول السليمة بأنها مستقيمة غير معوجة ، فالصراط فى اللغة : الطريق ، وسمى الدين طريقا لأنها تؤدى إليه ... ثم وصفهم عز وجل بأنهم على خلاف ذلك فقال « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » قيل المراد بهم : كفرة قريش الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة ، وصفوا بذلك تشنيعا لهم ، فهم منهمكون فى الدنيا ، يزعمون أنه لا حياة بعدها ، وهذا يشعر بعلة الحكم ، فإن الإيمان بالآخرة ، وخوف ما فيها من الدواهى ، من أقوى الدواعى إلى طلب الحق ، وسلوك سبيله ، وقيل المراد بهم : ما يعمهم وغيرهم من الكفرة المنكرين للحشر ... « عن الصراط » المراد به الصراط المستقيم الذى يدعوهم النبى صلى الله عليه وسلم إليه أو جنس الصراط ولو كان معوجا ، ورجح هذا بأنه أدل على كمال ضلالهم وشدة غوايتهم ، وقيل المراد به : الصراط الممدود على متن جهنم ، وهذا ليس بقول ... « لناكبون » النكوب والنكب : العدول والميل ، يقال : نكب عن الطريق ينكب نكوبا إذا عدل عنه ومال إلى غيره ، ومنه النكباء للريح بين ريحين ، سميت بذلك لعدولها عن المهاب ، والجار والمجرور « عن الصراط » يتعلق باسم الفاعل « ناكبون » ... ثم بين سبحانه وتعالى أنهم مصرون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال : « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر » أى : من قحط وجدب وسوء حال ، قيل هو ما عراهم بسبب أخذ مترفيهم بالعذاب يوم بدر ، أعنى الجزع عليهم ، وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل ، أى : ولو رحمناهم وكشفنا ضرهم برجوع مترفيهم إليهم ، وقيل هو ما هم فيه من شدة الخوف ، من القتل والسبى ومزيد الاضطراب من ذلك ، لما رأوا ما حل بمترفيهم يوم بدر ، وكشف هذا عنهم يكون بأمر النبى صلى الله عليه بالكف عن قتالهم وسبيهم بعد ، او بنحو ذلك ، وقيل المراد بالضر : عذاب الآخرة

أى : لو رحموا وكشف عنهم عذاب النار وردوا إلى الدنيا لعادوا لشدة لجاجهم وتمردهم ، واستظهر أبو حيان أن المراد به : القحط والجوع الذى أصابهم بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم ، والكثير على أنه الجوع الذى أصابهم من منع ثمامة الميرة عنهم ، وذلك أن ثمامة بن أثال الحنفى جاءت به إلى المدينة سرية محمد بن مسلمة حين بعثها صلى الله عليه وسلم إلى بنى بكر ابن كلاب فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثة أيام ، ثم خرج معتمراً فلما قدم بطن مكة لبى ، وهو أول من دخلها ملبيا ، ولذا قال الحنفى مفتخرا :

ومنا الذى لبى بمكة معلنـــا   برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

ثم قال لأهل مكة : والله لا يأتيكم من اليمامة ـ وكانت ريفا لأهل مكة ـ حبة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع ، حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز ، وهو الصوف والوبر ، كانوا يأخذونه فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه ،فقال أبو سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك الله والرحم ، ألست تزعم أن الله بعثك رحمـــة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع . فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة رضى الله عنه : خل بين قومى وبين ميرتهم ، ففعل ، وقال البعض إن « لو » تبعدهذا القول ... وجواب لو قوله : « للجوا فى طغيانهم » أى : لتمادوا فى ضلالهم وفرط كفرهم واستكبارهم ، وأصـــل اللجاج : التمادى فى العناد ، ومنه اللجة بالفتح لتردد الصوت ، ولجة البحر تردد أمواجه ، ولجة الليل تردد ظلامه ... « ويعمهون » يترددون ويتذبذبون ويتخبطون فى الضلال ، يقال : عمه كمنع وفرح عمها وعموها وعموهة وعمها نا ، والجملة فى موضع نصب حال من فاعل « لج » أى : للجوا فى طغيانهم عامهين . . وجملة « ولقد أخذناهم بالعذاب » جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ، والعذاب قيل هو الجوع الذى أصابهم فى سنى القحط ، وقيل المرض وقيل القتل يوم بدر ، وقيل الموت : وهى نفس الأقوال التى قيلت فى الضر فى الآية السابقة ... « فما استكانوا » أى : ماخضعوا وما تذللوا ،

بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله والانهماك فى العصيان ، فالمراد بالخضوع الذى فسرت به الاستكانة : الانقياد لأوامر الله عز وجل والإيمان به، واستكان على وزن «استفعل» من الكون، وأصل معناه : انتقل من كون إلى كون كاستحجر ، أى : انتقل إلى جنس الحجارة ، ثم غلب العرف على استعماله فى الانتقال من كون التكبر إلى كون الخضوع ، وهو من باب قر واستقر ، يقال : كنت لك واستكنت ، أى : خضعت ، وهى لغة هذيلية ، ولا يجعل من « استفعل » المبنى للمبالغة مثل استعصم واستحسر ، إلا أن يراد المبالغة فى النفى لا نفى المبالغة، وقيل هو من السكين أى : اللحمة المستبطنة فى الفرج لذلة المستكين ، وجوز الزمخشرى أن يكون على وزن « افتعل » من السكون والألف للإشباع كما فى قول الشاعر :

وأنت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنتزاح

وقول الآخر :

أعوذ بالله من العقراب الشائلات عقد الأذناب

ورد هذا بأن الإشباع المذكور ليس بفصيح فهو من ضرورات الشعر وينبغى أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه ... « وما يتضرعون » أى : وما يخشعون لله فى الشدائد عند إصابتها لهم ، ولا يدعونه متضرعين لرفعها ، والمشهور أن المراد بالعذاب فى هذه الآية : مانالهم يوم بدر من القتل والأسر ، وقد مر بك فى قوله تعالى « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب » أن بعض العلماء فسر العذاب فيها أيضاً بعذاب يوم بدر ، فهل يرد على هذا الرأى لزوم المنافاة بين ما هناك من قوله تعالى « إذا هم يجأرون » وما هنا من نفى الاستكانة لربهم ونفى التضرع إليه ؟ والجواب أن التنافى غير وارد لأمرين :

أولهما : أن المراد بالجؤار ـ كما تقدم ـ إما مطلق صراخ وإما الصراخ

باستغاثة ، والمراد بالاستكانة الانقياد لأمر الله تعالى ، وبالتضرع ما كان عن صميم الفؤاد ، فلا تنافى إذاً بين إثبات الجؤار وبين نفى الاستكانة والتضرع ، وكأن التعبير هناك بالجؤار للإشارة إلى أن استغاثتهم كانت أشبه بأصوات الحيوانات ...

ثانيهما : يحتمل أن يكون ماهناك من الجؤار لبيان حال المقتولين وما هنا من نفى الاستكانة والتضرع لبيان حال الباقين من الكفرة ... « حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد » المراد بالعذاب : عذاب الآخرة كما ينبىء عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة ، و « حتى » غائية ابتدائية فعلى الرغم من كونها غاية للنفى السابق ، فهى مبتدأ لما بعدها من مضمون الشرط والجواب والمعنى : هم مستمرون على هذه الحال حتى إذا فتحنا عليهم يوم القيامة بابا ذا عذاب شديد ... « إذا هم فيه مبلسون » ، « إذا » فجائية واقعة فى جواب إذا الأولى ، والضمير فى « فيه » يعود إلى الباب أو إلى العذاب أو إلى الفتح المفهوم من قوله : « فتحنا » : و « مبلسون » متحيرون ، لايدرون مايصنعون ، آيسون من كل خير ، أو ذوو حزن من شدة البأس ، ومثله قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ »[1] ، وقوله عز وجل : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ »[2] ، وقيل : هذا الباب استيلاء النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم يوم الفتح ، وقد أيسوا فى ذلك اليوم من كل ما كانوا يتوهمونه من الخير ، وقيل هو الجوع الذى أكلوا فيه العلهز ، وقيل هو القتل يوم بدر ، وأظهر هذه الأقوال هو القول الأول وهو أن المراد بالعذاب عذاب جهنم كما ينبىء بذلك سياق الآيات الكريمة ... « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة » أى : خلقها لكم ، وامتن بها عليكم ، لتحسوا بها الآيات التنزيلية والكونية وتتفكروا ، وإنما خص

---

(١) سورة الروم الآية ١٢ . (٢) سورة الزخرف الآية ٧٤ ، ٧٥ .

السمع والأبصار والأفئدة ، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية مالا يتعلق بغيرها ، وقدم السمع والبصر لتعلقهما بالمحسوسات ، وأخرت الأفئدة لتعلقها بالمعقولات ، فعلى العباد أن يعملوا سمعهم وأبصارهم فى آيات الله ، فيسمعوا وينظروا ، ثم يتفكروا بقلوبهم ، ومن لم يعمل هذه النعم فيما خلقت له ، فهو بمنزلة عادمها ، كما قال تعالى : « فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »[1]

« قليلا ما تشكرون » ، أى : شكرا قليلا تشكرون ، « فقليلا » منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، و « ما » زائدة للتأكيد ، والقلة على ظاهرها ، بناء على أن الخطاب للناس بتغليب المؤمنين ، وجوز أن تكون القلة بمعنى النفى بناء على أن الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات ، والمعنى : لا يشكرون البتة ، كما يقال لجاحد النعمة : ما أقل شكره ! أى : لا يشكر ، وقيل الخطاب للمؤمنين ، وليس بشىء ، والرأى أن الخطاب للمشركين خاصة مع جواز كون القلة على ظاهرها ، أى : يشكرون شكرا قليلا حقيرا ، لا يعتد به باعتبار تلك النعم الجليلة ؛ لأن العمدة فى الشكر صرف تلك القوى التى هى فى أنفسها نعم باهرة إلى ما خلقت له من التدبر والتأمل والتفكر الهادى لصاحبه ...

« وهو الذى ذرأكم فى الأرض » : بثكم فيها كما تبث الحبوب لتنبت ..

« وإليه تحشرون » أى : تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ، فتخرجون جماعة ، وتحشرون إليه ، لا إلى غيره ، فالحشر لا يقال إلا فى الجماعة ... « وهو الذى يحى ويميت » على جهة الانفراد والاستقلال ، وفى هذا تذكير بنعمة الحياة ، وبيان الانتقال منها إلى الدار الآخرة ... « وله اختلاف الليل والنهار » أى : هو وحده المؤثر فى اختلافهما أى : تعاقبهما واختلافهما نورا وظلاما ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان أى يتردد عليه بالمجىء والذهاب ، أو تخالفهما زيادة ونقصانا ، أو تكررهما يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة ... « أفلا تعقلون »

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٦ .

كنه قدرته وتتفكرون فى ذلك ، فالهمزة للإنكار ، والفاء عاطفة على مقدر ، والمعنى : ألا تتفكرون فلا تعقلون أو : أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل قدرة الله على كل شىء ، وقرىء «يعقلون» على الالتفات إلى الغيبة ، لحكاية سوء حال المخاطبين ، وهم الكفرة ... ثم بين سبحانه وتعالى أنه لاشبهة لهم فى إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد ، المبنى على مجرد الاستبعاد فقال : «بل قالوا مثل ماقال الأولون» بل إضراب عما سبق ، من حثهم على النظر والتأمل ، أى : لم يتأملوا بل قالوا ، «والأولون» هم آباؤهم ، ومن دان بدينهم من الكفرة المنكرين للبعث ، ثم بين ماقاله الأولون : «قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون» أى : أإذا بلينا ، وصرنا ذرات ناعمة ، وعظاما نخرة أإنا لمخلوقون ثانية ؟ هذا بعيد ولن يكون .. «لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل» : اسم الإشارة للبعث الذى أنكروه ، والجار والمجرور «من قبل» يتعلق بالفعل «وعد» باعتبار إسناده إلى كل من المعطوف عليه والمعطوف ، وصح هذا بالنسبة لهم وللآباء ؛ لأن الرسل أخبروا بالبعث بالنسبة إلى جميع من يموت ، أو يتعلق بمحذوف دل عليه «وعد» المذكور ، والمعنى : لقد وعدنا هذا ووعده آباؤنا من قبل ... و«قبل» ظرف زمان مبنى على الضم ... «إن هذا إلا أساطير الأولين» أى : أكاذيبهم التى سطروها ، جمع أسطورة كأحدوثة وأعجوبة ، والأساطير : الأباطيل والأكاذيب ، وقيل جمع أسطار ، وأسطار جمع سطر ، فهو جمع الجمع ، والمعنى : ماكتبه الأولون وسطروه فى كتبهم ، والأول أولى ؛ لأن صيغة «أفعولة» تجىء لما فيه التلهى ، فيكون حينئذ كأنه قيل : ما هذه إلا مكتوبات كتبت للتلهى ولا طائل تحتها ...

الأسرار والمزايا البلاغية : الاستفهام فى قوله تعالى : «أفلم يدبروا القول» وقوله عز وجل : «أم يقولون به جنة» استفهام إنكارى توبيخى ، فهو لإنكار ما وقع منهم وتوبيخهم عليه ، وإبراز وبيان أنه ماكان ينبغى أن يقع ، والفاء فى الاستفهام الأول للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، والمعنى : أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يدبروا القرآن ؟ ماكان

ينبغى لهم هذا ، بل كان ينبغى أن يقبلوا على الحق ، ويتأملوا القرآن ، ليقفوا على أوجه إعجازه ، ويعلموا أنه الحق من ربهم ... أم يقولون برسولهم جنة ؟ ما كان ينبغى منهم هذا القول ، وهم يعلمون أنه أرجحهم عقلا وأثقبهم رأيا، وأوفرهم رزانة ... وفى قوله تعالى « أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين » وقوله عز قائلا : « أم لم يعرفوا رسولهم » الاستفهام فيهما : استفهام إنكارى تكذيبى ، بمعنى أن هذا لم يقع ، فما جاءهم من جنس ما جاء الأولين ، تلك سنة الله فى إرسال رسله ، وليس ما جاءهم بدعا حتى ينكروا ويكذبوا ...ورسولهم هم أعرف الناس به وبصدقه وأمانته ، فعدم معرفتهم له صلى الله عليه وسلم غير واقعة ، ولذا كان ينبغى عليهم أن يبادروا إلى الإيمان بدعوته ، بدل أن يكذبوه ويتهموه بالجنون ... والإضافة فى قوله : « رسولهم » تنبئ بكمال علمهم ومعرفتهم به ، ففيها مزيد من التوبيخ والتبكيت لهم، حيث تخلوا وأعرضوا عن رسالته وهم أعلم الناس به ... وفى قوله تعالى : « فهم له منكرون » : قدم المعمول « له » لإفادة الاختصاص إذ المعنى فهم له لا لغيره منكرون ، وقد دخلت اللام على هذا المعمول لإفادة التوكيد وتقوية الحكم. والإنكار ليس لذات النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما لدعوته ورسالته ، فالكلام على حذف مضاف ، والمعنى : فهم لدعوته أو لرسالته منكرون ... وفى قوله تعالى : « بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » أظهر فى مقام الإضمار إذ الأصل: وأكثرهم له ، وذلك للمبالغة فى ذمهم وتوبيخهم وللدلالة على كراهيتهم لكل حق ، أى : وأكثرهم للحق ، أى حق كان لا لهذا الحق فقط ، وهذا أظهر فى ذمهم وتوبيخهم ، فأل فى الحق الأول للعهد ، وفى الثانى للاستغراق أو الجنس، والتعبير بالاسم « كارهون » دون الفعل ، للدلالة على ثبات الكراهية ودوام ملازمتها لهم .. وفى إسناد « اتبع » إلى الحق فى قوله : «ولو اتبع الحق أهواءهم» مجاز عقلى علاقته إسناد المبنى للفاعل إلى مفعوله ، والأصل : لو اتبع صاحب الحق وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، ولنا أن نجعل المجاز لغويا فى « اتبع » حيث عبر بالاتباع وأريد الموافقة ، أى : لو وافق الأمر المطابق للواقع «الحق»

أهواءهم ... وفى قوله تعالى : « بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » الأصل : فهم عنه ، فوضع الظاهر موضع المضمر لما فيه من زيادة التشنيع والتقريع ، وفى تقديم الجار والمجرور « عن ذكرهم » دلالة على القصر أى : فهم عن ذكرهم خاصة معرضون لا عن غير ذلك مما لا ينبغى الإقبال عليه والاعتناء به ، وفى التعبير بالاسم « معرضون » ما يدل على دوام الإعراض وملازمته لهم وثباتهم عليه . كما فى قوله : « هم له منكرون » ، « وأكثرهم للحق كارهون » ... وفى إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة فى قوله : « بل أتيناهم بذكرهم » بعد إسناد المجىء بالحق إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، فى قوله: « بل جاءهم بالحق » ، تنويه بشأن النبى صلى الله عليه وسلم ، وتنبيه إلى عظم منزلته وسمو مكانته وكونه بمثابة عظيمة من الله عز وجل ، وفى إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه عليه الصلاة والسلام بعنوان الحقية ، وعند إسناده إلى الله تعالى بعنوان الذكر ، مالا يخفى من اللطائف والمزايا ، التى اقتضاها المقام ، فإن التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به ، هو الذى يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون فى شأنه صلى الله عليه وسلم ، وأما التشريف الكامن وراء الذكر فإنما يليق به تعالى ، ولا سيما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أخذ المشرفين بذلك الذكر ... وفى قوله تعالى : « أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير » ذكر الرب وإيثار التعبير به فى هذا المقام ، وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام فيه مالا يخفى من حسن تعليل الحكم المذكور ، وهو نفى المسألة المستفادة من الاستفهام الإنكارى ، فضلا عن تشريفه صلى الله عليه وسلم وإعلاء منزلته بتلك الإضافة ، وفى إيثار التعبير عن رزق الله تعالى وعطائه بالخراج دون الخرج « فخراج ربك » ما يدل على كثرته وسعته ، وأما قراءة من قرأ « خراجا فخرج ربك » ففيها إشعار بقوة تمكنهم وشدة انغماسهم فى الكفر ، وحط من قدر خراجهم ، إذ المعنى فالشىء القليل منه عز وجل خير من كثيرهم فما بالك بكثيره تبارك وتعالى ، كما أن فى التعبير عن رزقه تعالى وعطائه « بالخراج » عقب قوله : « أم تسألهم خرجا » مشاكلة لطيفة ، إذ

الخرج هو الجعل والأجر المقابل للدخل ، ويقال لكل ما تخرجه لغيرك ، والخراج مالزمك ، والخرج ما تبرعت به ، واللزوم بالنسبة لله تعالى تفضل منه ووعد - كما ذكرنا - ، وعطاء الله تعالى لا يسمى خرجا ولا خراجا وإنما يسمى رزقا ، وقد ذكر بلفظ « الخراج » لوقوعه فى صحبة خرجهم فى قوله : « أم تسألهم خرجا » على سبيل المشاكلة التحقيقية ، إذ المشاكلة هى ذكر المعنى بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديراً ... وفى قوله تعالى : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » استعير الصراط المستقيم للدين الحق ، فالعقول السليمة تشهد باستقامته وليس فيه شائبة اعوجاج توجب الاتهام ، ووراء هذه الاستعارة ، وتأكيد الخبر بإن واللام « إنك لتدعوهم » ما يدحض إنكار الكفرة ويدفع جحودهم ، وكذا التأكيد فى قوله : « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » ، فهم ينكرون أنهم ناكبون عن الصراط ، والتأكيد يدفع هذا الإنكار ويبرز ضلالهم وغوايتهم ، وقد عبر بالظاهر « عن الصراط » فى موضع المضمر ، إذ الأصل أن يقال : « عنه لناكبون » لتقدم ذكر الصراط ، وذلك لإبراز كمال ضلالهم وشدة غوايتهم ، لما فى وسمهم بالنكوب عن الصراط ، من توبيخ وتضليل ، وليس فى الوسم بالضمير مافى الوسم بالظاهر ... وفى قوله تعالى « فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » عبر عن التضرع بالمضارع ليفيد الدوام ، إلا أن المراد دوام النفى لانفى الدوام ، أى : ليس من عادتهم التضرع إليه أصلا ، يقول الزمخشرى : « فإن قلت هلا قيل : وما تضرعوا أو فما يستكينون ؟ قلت : لأن المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة ، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد [١] » . . . وفى قوله تعالى : « حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد » ، وصف العذاب بالشدة وأوثر التعبير بالحرف « على » دون اللام للدلالة على التهويل والتفظيع وقوة الأخذ ، وانظر إلى الحديث عن الجنة وتفتح أبوابها للمؤمنين الأخيار « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ »[٢] فالجنة مفتحة لهم تكريما وحفاوة ، أما العذاب

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٩ (٢) سورة ص آية ٥٠ .

فيفتح على الكفرة تحقيرا وإهانة وإذلالا . . . وفى قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة » قدم السمع لكثرة فوائده ، وأفرد لأنه مصدر فى الأصل ، ولم يجمعه الفصحاء فى الأكثر ، وقيل : أفرد لأنه يدرك به نوع واحـــد من المدركات وهو الأصوات ، بخلاف البصر فإنه يدرك به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال وغيرها ، وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك به أنواع شتى من التصورات والتصديقات ، وفى تأخير الأفئدة عن السمع والأبصار مزية جليلة وهى التنبيه إلى ترقب وسائل الإدراك ، فالسمع والبصر متقدمان فى الإدراك ، إذ بهما تدرك الأدلة الحسية التى تسمع وتشاهد ، ثم يعى القلب ويدرك الأمور العقلية . . . وفى قوله تعالى : « قليلا ما تشكرون » نكرت الصفة وحذف موصوفها للإشارة إلى قلة الشكر ، وزيدت «ما» لتأكيد تلك القلة ، والمعنى : تشكرون شكرا قليلا لا يغنى ولا ينفع ، كما فى قوله تعالى : « فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ »[1] ويجوز أن يكون كناية عن عدم الشكر البتة . وتقديم الجار والمجرور فى قوله : « وإليه تحشرون » وقوله عز قائلا : « وله اختلاف الليل والنهار » للدلالة على القصر الحقيقى أى : تحشرون إليه خاصة لا إلى غيره ، وله سبحانه وتعالى خاصة اختلاف الليل والنهار فهو المؤثر فى اختلافهما دون سواه . . . وقد كرر الاسم الموصول والضمير العائد إلى الله عز وجل « وهو الذى » فى الآيات الثلاث لزيادة التنبيه إلى تلك النعم التى امتن بها تبارك وتعالى على عباده ولزيادة توبيخ وتبكيت الكفرة الذين أعرضوا عن ذكر الله ورفضوا الهداية على الرغم من تعدد نعم الله عليهم ، ولذا قال فى ختامها موبخا « أفلا تعقلون » فهو استفهام إنكارى لتوبيخهم ، إذ أهملوا النظر والتأمل الذى يهديهم إلى سبيل الرشاد ، ولاحظ الالتفات من الخطاب فى تلك الآيات إلى الغيبة فى قوله : « بل قالوا » فهو التفات الغاضب المتوعد ، حيث يؤذن الانتقال من خطابهم والتحول عنهم إلى الغيبة بإبعادهم وتخلى الله عز وجل عنهم ،

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٦ .

ثم لاحظ الطباق بين « يحيي ويميت » وبين « الليل والنهار » وما ينبىء به من إبراز قدرة الله عز وجل وعظيم سلطانه ... وفى قوله تعالى « بل قالوا مثل ماقال الأولون ، قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون » فصل بين الجملتين لكمال الاتصال حيث فسر القول الثانى ماقبله وفصل مافيه من إجمال ، وكذا الفصل بين الجملتين الواقعتين مقولا للقـــول الثانى « أإذا امتنا ... أإنا لمبعوثون » ، ولاحظ ماينبىء به طى البعث من السؤال الأول وإبرازه فى الثانى من شدة إنكار هؤلاء الكفرة للبعث ، وكأنهم يأبون النطق به خبرا « نبعث » ولو منفيا منكرا ، ويريدونه سؤالا مثارا « أإنا لمبعوثون ؟ » ... ولمزيد من التعجيب والإنكار والاستبعاد كان اسم الإشارة وتكراره وقصره — وهو مشار به إلى البعث — على كونه أساطير الأولين فى قوله تعالى : « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » ، وقد قدم فى هذه الآية الكريمة قوله « نحن وآباؤنا » على اسم الإشارة « هذا » ، وفى سورة النمل قدم اسم الإشارة « لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ »[1] وذلك وفاء بحق المقام ، وهذا من دقائق النظم الكريم ، فلما كان الغرض الذى تعمد وقصد بالكلام هنا هو حكاية مقالة الآباء والتشبث بها « بل قالوا مثل ماقال الأولون » قدموا هم وآباؤهم على اسم الإشارة المشار به إلى البعث ، ولما كان الغرض الذى تعمد وقصد فى سورة النمل هو البعث « **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ** »[2] قدم اسم الإشارة ، يقول صاحب الكشاف : « فإن قلت : قدم فى هذه الآية « هذا » على « نحن وآباؤنا » وفى آية أخرى قدم « نحن وآباؤنا » على « هذا » ، قلت : التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وأن الكلام إنما سيق لأجله ، ففى إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام ، وفى الأخرى على

---

(١) سورة النمل الآية ٦٨ . (٢) سورة النمل الآية ٦٧ .

أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد »(١) . . .

معانى الآيات الكريمة : بعد أن أبرزت الآيات السابقة ماقد صنعه المشركون إزاء القرآن الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الهجر والاستكبار والاستهزاء ، أخذ سبحانه وتعالى فى بيان أسباب إقدامهم على الكفر ورفضهم قبول الحق ، على سبيل التبكيت والتوبيخ والإنكار ، فذكر أنهم لم يتدبروا القرآن ، إذ لو تدبروه لبدت لهم وجوه إعجازه ، ولأقبلوا على الإذعان والامتثال ، ثم أضرب عن هذا إلى استفهام إنكارى آخر : أجاءهم بما لم يأت آباءهم الأولين ؟

وحقيقة الأمر أن ماجاءهم به صلى الله عليه وسلم هو شرع الله الذى شرعه لعباده « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(٢) إنه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولذا فلا وجه لرده وإنكاره ، ثم أضرب عن هذا إلى سؤال آخر : ألم يعرفوا رسولهم ، فهم لذلك ينكرون دعوته ؟ كيف وهم أعلم الناس بصدقه وأمانته ورجاحة عقله ، ثم يضرب عن ذلك إلى اتهامهم له بالجنون ، وقد جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، ولهذا يرفضونه ويعرضون عنه ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسد نظام العالم وذلك لاختلاف وفساد أهوائهم ، ولا أدل على فساد عقولهم من إعراضهم عن ذكرهم ، الذى فيه فخرهم وشرفهم ، وهو القرآن الذى أنزله الله على رسولهم الأمين ، ثم ينفى عز وجل أن يكون سبب كفرهم وإعراضهم عن الحق أن الرسول يطلب منهم مالا وأجرا على تبليغه رسالة ربه ، إنه لا يسألهم خرجا ؛ لأن رزق ربه خير ، وهو خير الرازقين ، بل يدعوهم إلى صراط ربه المستقيم ، وإن الكفرة عن هذا الصراط لناكبون ، وإذ قد انتفت كل هذه الأمور التى كان يمكن أن تكون سببا لرفضهم الدعوة ، فما السبب الحقيقى

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ١٥٨ . (٢) سورة الشورى الآية ١٣ .

إذاً ؟ إنه العناد والمكابرة وكراهة الحق ، ولذا يقول صاحب الكشاف : « قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سره وعلنه ، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هـذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعـل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم ، مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعللهم بأنه مجنون بعـد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكراهتهم للحق ، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر (١) » ثم يخبر عز وجل عما جبل عليه هؤلاء الكفرة وأنه لو كشف عنهم ما يحل بهم من قحط وجوع أو عذاب وضر لما انقادوا للحق بل سيستمرون متمادين فى طغيانهم وضلالهم ، ولقد ابتلاهم الله بالمصائب والشدائد ، وأخذهم بالعذاب ، فما ردهم ذلك عما كانوا فيه قبل الأخذ من كفر وضلال ، بل استمروا فى غيهم وطغيانهم « فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ »(٢) لقد أصابهم فى بدر ما أصابهم من العذاب ، وحل بهم بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم ما حل من الجوع والقحط ، وقد عرفت قصة ثمامة ابن أثال ، التى يروى أن هذه الآية نزلت فيها ، فقد حال ثمامة بين مكة والميرة حتى أكلوا العلهز جوعا ، وعـلى الرغم من كل هذا ما استكانوا لربهم وما يتضرعون ، بل هم مستمرون فى كفرهم حتى يفتح عليهم عذاب الآخرة ، وعندئذ يتخبطون ، وييئسون من كل راحة ، وينقطع بهم كل أمل ورجاء ...

ثم يعدد الله عز وجل بعض نعمه على عباده ، فقد أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة ، ليتأملوا ويتدبروا ويشكروا ، فما كان من هؤلاء شكر ، وذرأهم فى الأرض ليأكلوا من رزقه ، وعليهم أن يتذكروا أن مصيرهم إليه ، وأنهم

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٨ . (٢) سورة الأنعام آية ٤٣ .

مسئولون عما قدموا من خير أو شر، ويخبر عز وجل عن آثار قدرته، فهو الذى يحيى ويميت، وسخر الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر حثيثا، يتعاقبان لا يفترقان ولا يفترقان ... « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[1] فهل تدبروا تلك النعم وتأملوا آثار قدرته عز وجل ؟ كلا لقد لجوا فى طغيانهم، وقالوا مثل ما قال الأولون، أنكروا البعث واستبعدوه وتعجبوا من وقوعه :أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما؟ أإنا لمبعوثون؟... « أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ »[2]، ونسبوا هذا البعث إلى الأساطير التى تحكى للتلهى بها « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين »، نسوا خلقهم الأول ولو تأملوه ما أنكروا البعث، لأن من خلقهم ابتداء قادر على إعادتهم ... « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا »[3] . . . « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »[4] ...

* * *

« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ . بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

---

(١) سورة يس آية ٤٠
(٢) سورة النازعات آية ١١، ١٢
(٣) سورة مريم آية ٦٦، ٦٧ .
(٤) سورة يس آية ٧٨، ٧٩ .

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ . رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ . ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » . .

اللغة والإعراب : « قل لمن الأرض ومن فيها » أى : قل يامحمد لأهل مكة هذا القول ، والمراد بمن فى الأرض : الخلق جميعا ، وعبر بمن تغليبا للعقلاء على غيرهم .. « إن كنتم تعلمون » أسلوب شرط جوابه محذوف دل عليه الاستفهام قبله ، والتقدير : إن كنتم تعلمون فأخبرونى عن ذلك ، وفى هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم إذ عبدوا أصناما لاتملك ضرا ولا نفعا ، ولا تغنى شيئا ، وجعلوها شركاء لله الذى له ملك السموات والأرض ومن فيهن . . . « سيقولون لله » أى : لابد لهم أن يقولوا ذلك ، لأنه معلوم ببديهة العقل ، ولا يتأتى لعاقل أن ينازع فيه ، واللام فى قوله : «لله» الملك باعتبار الخلق . . . « قل » عند اعترافهم بذلك ، تبكيتا لهم ، وحثا على التدبر والتفكر ، وترغيبا فى النظر والتأمل : « أفلا تذكرون » الهمزة للإنكار ، والفاء عاطفة على مقدر دل عليه السياق ، أى : أتعلمون أو أتقولون ذلك فلا تتذكرون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداء لهو قادر على إعادتهما ثانيا ، فإن البدء ليس بأهون من الإعادة ، بل الأمر بالعكس فى قياس العقول ، و « تذكرون » أصله : تتذكرون فحذفت تاؤه ، وقد قرىء : « تتذكرون » على الأصل . . . « قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم » أعيد لفظ « الرب » تنويها بشأن العرش ، ورفعا لمحله من أن يكون تبعا للسموات ، وجوداً أو ذكرا ، و « العظيم » بالجر نعت للعرش ، وقرىء بالرفع نعتا للرب . . . « سيقولون لله » قرىء فى هذه الآية وفيما بعدها باللام « لله » واللام الملك كما سبق ، وقرىء

بغير اللام « سيقولون الله » ، أما فى السابقة فلم يقرأ إلا باللام ، والقراءة بغير اللام فى الآيتين نظرا للفظ السؤال ، وباللام نظرا للمعنى ، وكلا الأمرين جائز ، يقال : من صاحب هذه الدار ؟ فيجاب : « زيد » نظرا للفظ السؤال ، أو « لزيد » نظرا للمعنى ؛ لأن معنى من صاحب هذه الدار ؟ : لمن هذه الدار؟، وكلا الأمرين وارد فى كلامهم ، فمن ذلك قول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قلت لخـــالد

وأنشد الزجاج :

وقال السائلون لمن حفرتم فقال المخـــبرون لهم وزير

« قل أفلا تتقون » أى : أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه ولا تخافون على أنفسكم من عقابه ، حيث تتركون العمل بموجب العلم ، وتكفرون به تعالى ، وتنكرون ما أخبر به من البعث ، وتثبتون له سبحانه وتعالى شريكا ... « قل من بيده ملكوت كل شىء » مما ذكر ومما لم يذكر ، والملكوت : الملك وزيادة التاء للمبالغة نحو جبروت ورهبوت ، والمراد : الملك الواسع الشامل... « وهو يجير » أى يغيث ويمنع من يشاء ممن يشاء ... « ولا يجار عليه » أى : لا يمنع أحد أحدا من عذابه عز وجل ، ولا يقدر على نصره وإغاثته ، يقال : أجرت فلانا ، إذا استغاث بك فأغثته وحميته ، وأجرت عليه إذا حميت عنه ودافعت ، فتعدية الفعل بعلى لتضمينه معنى النصرة أو الاستعلاء ... « فأنى تسحرون » أنى : اسم استفهام بمعنى : كيف أو من أين أو متى ، وتسحرون أى : تخدعون أو تصرفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه من البغى ، والمعنى : كيف يخيل لكم الحق باطلا والصحيح فاسدا ، والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما ... « بل أتيناهم بالحق » إضراب عن قولهم « إن هذا إلا أساطير الأولين » ، والحق هو القول الصدق فى أمر التوحيد والبعث والجزاء ، إذ هو الأمر الواضح الذى يحق اتباعه ، وقرىء بتاء الخطاب

وبتاء التكلم « أتيتهم » فعلى القراءة بنون العظمة « أتيناهم » ، وبتاء التكلم « أتيتهم » يرجع الضمير إلى المولى عز وجل ، وعلى القراءة بتاء الخطاب « أتيتهم » يرجع الضمير للنبى صلى الله عليه وسلم . . . « وإنهم لكاذبون » فى قولهم : « إن هذا إلا أساطير الأولين » وفيما ينسبونه إلى الله سبحانه وتعالى من الولد والشريك ، وفيما يزعمونه مما ينافى التوحيد ... « ما اتخذ الله من ولد » لتنزهه عز وجل عن الاحتياج وتقدسه تعالى عن المماثلة . . . « وما كان معه من إله » يشاركه فى الألوهية ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، « ومن » فى الموضعين زائدة لتأكيد النفى ، وكان تامة ، والمعنى : مااتخذ الله ولدا وما وجد معه إله . . . « إذا لذهب كل إله بما خلق » أى : لاستبد بالذى خلقه ، واستقل به تصرفاً ، وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهما التطالب والتحارب والتغالب ... « ولعلا بعضهم على بعض » أى : غلب القوى على الضعيف وقهره وأخذ ملكه ، كعادة الملوك من بنى آدم ، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لايستحق أن يكون إلها ، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة فى ذلك ، وأنه لا يقوم به إلا واحد . تعين أن يكون هذا القائم هو الله سبحانه وتعالى ، والكلام على حذف شرط وقعت « إذاً » فى جوابه ، والتقدير : لو كان مع الله آلهة كما تزعمون إذاً لا نفرد كل إله بخلقه واستبد به ، وقال أبو حيان : « إذاً » حرف جواب وجزاء ويقدر قسم يكون «لذهب» جوابا له ، والتقدير : والله إذاً ، أى : والله إذا كان معه من إله لذهب كل إله بما خلق ، وقيل إن « إذا » ليست حرف جواب وجزاء ، وإنما هى إذا الشرطية حذفت جملتها التى تضاف إليها — جملة الشرط — وعوض عنها التنوين كما فى « يومئذ » ، والأصل : إذا كان معه من إله لذهب كل إله بما خلق ، والتعبير « بإذا » دون « إن » التى تناسب هذا المقام من قبيل مجاراة الخصم ، « وما » فى قوله : « بما خلق » موصولة حذف عائدها ، والمعنى : بالذى خلقه ، وقيل هى مصدريه والمعنى : بخلقه ، ولم يستدل على انتفاء اتخاذ الولد ، إما لغاية ظهور فساده ، أو للاكتفاء بالدليل الذى أقيم على نفى أن يكون معه سبحانه وتعالى إله ، بناء

على ما قيل من أن ابن الإله يلزم أن يكون إلها ، إذ الولد يكون من جنس الوالد وجوهره ، فهو ينازع أباه فى ملكه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ... «سبحان الله عما يصفون » مبالغة فى تنزيهه تعالى عن الولد والشريك ،فسبحان الله معناه : تنزيهه تعالى عن كل مالا ينبغى له أن يوصف به، فهو اسم فعل يقوم مقام المصدر « تسبيحا » تقول : سبحت الله تسبيحا أى : نزهته تنزيها ، « وما » إما اسم موصول حذف عائده أو مصدرية ، والمعنى : سبحان الله عن الذى يصفونه به أو عن وصفهم ، وقرىء : «تصفون »بتاء الخطاب ... « عالم الغيب والشهادة» أى : كل غيب وشهادة ، فهو سبحانه مختص بعلم الغيب والشهادة ، وأما غيره فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب ، وهذا على ما قيل إشارة إلى دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافق المسلمين والمشركين فى تفرده تعالى بذلك ، « و عالم » قرىء بالجر على أنه بدل من لفظ الجلالة أو صفة له ، لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فيتعرف بالإضافة ، وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هو عالم ، وروى عن بعضهم أنه كان يخفض إذا وصل القراءة ويرفع إذا ابتدأها ... « فتعالى عما يشركون » تفريع على كونه تعالى عالما بالغيب والشهادة ، فهو كالنتيجة لما أشار إليه من الدليل على انتفاء الشريك ، والفاء عاطفة على معنى ما تقدم ، كأنه قيل علم الغيب فتعالى ، كقولك : زيد شجاع فعظمت منزلته ، أى : شجع فعظمت ، ويحتمل أن يكون المعنى على إضمار القول ، أى :فأقول تعالى عما يشركون ، فالفاء للاستئناف على أنه إخبار مستأنف ، يفيد أنه عز وجل متعال عن أن يكون له شريك فى الملك ، « وما » فى قوله « عما يشركون » إما موصولة أو مصدرية كما فى قوله : «عما يصفون»...

« قل رب إما ترينى » أى : إن كان ولا بد أن ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل لهم ، « فإن » شرطية ، « وما » زائدة ،زيدت هى والنون فى «ترينى» للتوكيد ، و « ترى » : يتعدى لمفعولين ، المفعول الأول ضمير المتكلم العائد إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والثانى « ما » الموصولة فى قوله « ما يوعدون » فما : موصولة وقعت مفعولا ثانيا لترى،وقد حذف عائدها ، والمعنى : قل رب

إن تريني الذي يوعدونه من العذاب الدنيوي المستأصل لهم ، وأما العـــذاب الأخروي فلا يناسب السياق ... « رب فلا تجعلني في القوم الظالمين » النداء « رب » معترض بين الشرط والجواب مبالغة في التضرع ، والفاء واقعة في جواب « إن » ، والمعنى إن أنزلت بهم النقمة يارب فاجعلني خارجا عنهم ولا تجعلني قرينا لهم فيما هم فيه من العذاب ... « وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » نرى : يتعدى لمفعولين كما في « تريني » الأول الكاف، والثاني « ما » الموصولة والجار والمجرور « على أن نريك » يتعلق بخبر إن « لقادرون » والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يرى رسوله صلى الله عليه وسلم عذابهم، ولكنه عز وجل يؤخره لعلمه أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمن ، أو لأنه لا يعذبهم والرسول فيهم : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »[1] ، وقيل قد أراه سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة ، ولا يخفى بعد هذا القول ؛ لأن المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا ، لا يظهر على يديه صلى الله عليه وسلم للحكمة الداعية إلى عدم ظهوره ... « ادفع بالتي هي أحسن السيئة » أي : ادفع بالخصلة التي هي أحسن الخصلة السيئة ، قالوا : المراد بالتي هي أحسن شهادة أن لا إله إلا الله ، والسيئة الشرك وقيل التي هي أحسن السلام والسيئة الفحش ، وقيل الأول الموعظة والثاني المنكر ، وقيل: الرجل يقول لأخيه ماليس فيه فيجيبه : إن كنت كاذبا فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لك وإن كنت صادقا فانا أسأل الله تعالى أن يغفر لي ، والمختار والأولى : العموم وأما هذه الأقوال المذكورة في معنى التي هي أحسن، والسيئة فهي من قبيل التمثيل ، والمفاضلة في قوله « بالتي هي أحسن » على حقيقتها ، فهي مفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة ، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء ، ويقنع في دفعها بذلك ، وقد يزاد على الصفح الإكرام والإحسان إلى المسيء ، وقد تبلغ الغاية ببذل الاستطاعة في إكرام المسيء والإحسان إليه، فهذه الأنواع

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٣ .

من الدفع كلها دفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات فى الدفع هى الأخيرة لاشتمالها على عدد من الحسنات : الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأحسن الحسنات فى دفع السيئة ، وفى هذا من الحث له صلى الله عليه وسلم إلى ما يليق بشأنه الكريم من محاسن الأخلاق مالا يخفى ، وهو أبلغ من أن يقال : ادفع بالحسنة السيئة لمكان المفاضلة،وجوز أن تكون المفاضلة بين الحسنة والسيئة ، على معنى أن الحسنة فى باب الحسنات أزيد من السيئة فى باب السيئات ، ويطرد هذا فى كل مفاضلة بين ضدين ، كقولهم : العسل أحلى من الخل ، فإنهم يعنون أن العسل فى الأصناف الحلوة أميز من الخل فى الأصناف الحامضة ، ومن هذا القبيل مايحكى عن أشعب الماجن أنه قال : نشأت أنا والأعمش فى حجر فلان ، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا ، يعنى أنهما استويا فى بلوغ كل منهما الغاية ، أشعب بلغ الغاية على السفلة فى التدلى ، والأعمش بلغ الغاية فى التعلى ، والاول أولى ، وهو أن المفاضلة جارية على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل [1]... والآية قيل إنها منسوخة بآية السيف ، وقيل : هى محكمة ، لأن الدفع المذكور مطلوب مالم يؤد إلى ثلم دين أو إزراء بمروءة ، وقيل : هى محكمة فى حق هذه الأمة فيما بينهم منسوخة فى حق الكفار ... «ونحن أعلم بما يصفون » ما : إما مصدرية أو موصولة حذف عائدها ، أى : نحن أعلم بوصفهم إياك ، أو بالذى يصفونك به مما أنت على خلافه ، أو بما يصفون ويذكرون من الشرك والتكذيب ، وفيه وعيد لهم بالعقوبة ، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ... «وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين » الهمزات : جمع همزة اسم مرة من الهمز وهو الدفع باليد أو غيرها وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم ، قال تعالى : « وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » [2] ، وقال جل وعلا :

(١) انظر الكشاف ج ٣ ص ٤١ ، ٤٢

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ .. »[1] يقال : همزه ولمزه ونخسه أى : دفعه، ومنه مهماز الرائض ويطلق على حديدة تربط فى مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو لتثب ، وإطلاق ذلك على الوسوسة والحث على المعاصى لما بينهما من الشبه الظاهر ، فالشياطين تحث على المعاصى وتغرى عليها ، كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشى ، ونحو الهمز الأز فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا »[2] أى : تهيجهم وتزعجهم وتغريهم على المعاصى ، وقيل الهمز كلام من وراء القفا واللمز المواجهة، وجمع الهمزات للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد الشياطين ... « وأعوذ بك رب أن يحضرون » ، أمره عز وجل أن يتعوذ بربه من حضور الشياطين بعدما أمره أن يتعوذ من همزاتهم ، والمعنى : وأعوذ بك رب أن يكونوا معى فى حال من الأحول ، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة ، والإغراء على الشر ، والصرف عن الخير ، وإلى هذا العموم ذهب ابن زيد وهو أولى ، لأن الآية لم تخصص الاستعاذة من حضورهم بحال من الأحوال ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما تخصيص حال الصلاة ، وحال قراءة القرآن ، وعن عكرمة حال حلول الأجل ، وذلك لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة من حضور الشياطين ، ولا سيما الحال الأخيرة، ولذا قيل فى الدعاء : اللهم إنى أعوذ بك من النزغ عند النزع ...

الأسرار والمزايا البلاغية : فى الآيات الثلاث الأولى نجد أن الأسئلة فى صدورها وكذا فى عجزها يمهد السابق فيها للاحق ويقرر اللاحق السابق ، وقد روعى فيها قضية الترقى ، تأمل : « قل لمن الأرض ومن فيها ؟ . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ؟ » تجد أنه قد سئل أولا عمن له الأرض ومن فيها ،

(١) سورة طه الآية ١٢٠ . (٢) سورة مريم آية ٨٣ .

« قيل « من » تغليبا للعقلاء ، ولأنه يلزم أن يكون له غيرهم من طريق الأولى ، ثم سئل عمن له السموات السبع والعرش العظيم ، والأرض بالنسبة له كلاشىء ، وقد أعيد لفظ الرب تنويها بشأن العرش ، ورفعا لمحله من أن يكون تبعا للسموات وجودا أو ذكرا ، ثم سئل عمن بيده ملكوت كل شيء ، فأتى بأعم العام وكلمة الإحاطة ، وأوثر التعبير بالملكوت وهو الملك الواسع الشامل ، وقيل: «بيده» تصويرا وتخييلا فهى استعارة تمثيلية تبرز قدرته جل وعلا وهيمنته على ملكوت كل شيء ، وكذلك روعيت هذه النكتة ، نكتة التمهيد والتقرير والترقى ، فى الأسئلة التى وردت فى عجز الآيات الكريمة على سبيل الإنكار والتوبيخ ، تأمل «قل أفلا تذكرون ؟» «قل أفلا تتقون ؟» «قل فأنى تسحرون؟» عبروا أولا بعدم التذكر فإن أيسر النظر يكفى فى انحلال عقدهم ، ثم بعدم الاتقاء وفيه زجر ووعيد ، ثم بالتعجب من خدع عقولهم حيث تتخيل الباطل حقا والحق باطلا ، وأنى لها عندئذ التذكر والتقوى ، وهذا الترقى أبلغ لما فيه من زيادة التخويف والتحذير ... وفى قوله تعالى : « إن كنتم تعلمون » حذف جواب الشرط لدلالة الاستفهام عليه أى : إن كنتم من أهل العلم ومن العقلاء أو عالمين بذلك فأخبرونى به ، وفيه من المبالغة فى الاستهانة بهم وتقرير فرط جهالتهم مالا يخفى ، ومما يقوى ذلك بالإضافة إلى حذف جواب الشرط ، التعبير « بإن » التى تفيد ندرة وقوع الشرط أو بعده دون « إذا » التى تفيد تحقق وقوعه ، والإخبار عن جواب الاستفهام قبل أن يجيبوا « سيقولون لله » ، وتكرار الأسلوب حيث ذكر عقب الاستفهام الأول ثم عقب الاستفهام الثالث .. وفى قوله تعالى : « فأنى تسحرون » استعارة تبعية حيث شبه مايقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخليط والتخبط ثم اشتق من السحر « تسحرون » بمعنى تخدعون وتصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم بأنه وحده المتصرف المالك ... وفى قوله: « وهو يجير ولا يجار عليه » طباق سلب له أثره البالغ فى إبراز قدرة الله عز وجل الذى يمنع من يشاء ممن يشاء ولا يمنع أحد أحدا من عذابه جل وعلا ...

وفى قوله تعالى : « بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون » أكد الخبر الثانى بثلاثة مؤكدات : إن واللام واسمية الجملة ، ولم يؤكد الخبر الأول ، على الرغم من أن المشركين ينكرون الخبرين معا : ينكرون أن ما جاءهم هو الحق ، وينكرون أنهم كاذبون ، بل يعتقدون أنهم صادقون وعلى الحق يمضون ، وذلك يرجع إلى وضوح الأدلة على كون ما أتاهم هو الحق ، وفيه حث لهم على تأمل تلك الأدلة وتدبرها ، وبخاصة ما فى الآيات السابقة فهى من الوضوح بمكان ، وتأملها يهديهم إلى الإذعان ، ويوصلهم إلى الإقرار بأن ما أتاهم هو الحق ، ولذا ترك تأكيد الخبر الأول ، وأما تأكيد الثانى ، فلكونهم فى حاجة إلى قرع أسماعهم بهذا التأكيد ، دفعا لإنكارهم ، وتحريكا لعقولهم ، التى تعامت عن عن رؤية الحق الواضح ، وأبت إلا العناد والمكابرة ... وفى قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » زيدت « من » فى الموضعين للمبالغة فى تأكيد النفى ، نفى اتخاذ الولد ووجود الشريك ... وفى قوله تعالى : « إذاً لذهب كل إله بما خلق » إيجاز بالحذف حيث حذفت لو وشرطها والمعنى : لو كان معه آلهة — كما تزعمون — إذاً لذهب كل إله بما خلق ، وذلك على اعتبار « إذاً » حرف جزاء ، أما على اعتبارها شرطية فيكون شرطها محذوفاً وقد عوض عنه التنوين ، والتقدير : إذا كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ، والتعبير بإذا عندئذ من قبيل مجاراة الخصم ، والسر البلاغى وراء حذف الشرط هو المبالغة فى تنزيه الله — جلا وعلا — عن الشرك ، والرغبة فى ألا ينطق بتلك الجملة : « كان معه آلهة » ولو فرضا ... وفى قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة فتعالى » طباق بين الغيب والشهادة وهذا الطباق يبرز كل علم الله عز وجل الذى أحاط بكل شىء علما ، وقد أوثر التعبير بالاسم فى قوله « عالم » وبالفعل فى قوله : « تعالى » ولم يقـــل : عالم الغيب والشهادة متعال أو يعلم الغيب والشهادة فتعالى ، وذلك للدلالة باستخدام الاسم على دوام علمه واستمراره ، وبالفعل على تجدد تنزهه عز وجل وتقدسه عن الشركاء بتجدد المخلوقين ، فالكل مأمور بتقديسه وتنزيهه ، تبارك ربنا وتعالى عما يشركون ...

وفى قوله تعالى : « رب إما تريني ما يوعدون . رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين » زيدت « ما » ونون التوكيد إذ الأصل : إن ترنى وذلك للمبالغة فى توكيد المعنى ، فالله عز وجل قادر على أن يريه صلى الله عليه وسلم ما يوعدون من العذاب ، ولكنه وعد ألا يعذبهم وهو فيهم « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »[1] ولذا أوثر التعبير « بإن » دون « إذا » لعدم تحقق وقوع الشرط ، وجاء الدعاء « رب » قبل الشرط وقبل الجـــزاء مبالغة فى الابتهال والتضرع ، وينبىء حذف حرف النداء « يا » إذ لم يقل يارب مثلا ، بشدة قرب الداعى صلى الله عليه وسلم من ربه جل وعلا ، واختير لفظ الرب لما فيه من معنى التربية ، والإيذان بأنه سبحانه المالك الناظر فى مصالح العباد ، المتولى شئونهم ، ووضع الظاهر « فى القوم الظالمين » موضع الضمير إذ الأصل : فيهم ، وذلك تسجيلا عليهم وإشارة إلى استحقاقهم العذاب بما ارتكبوا من ظلم وبغى ، وفى أمره صلى الله عليه وسلم أن يدعو بهذا الدعاء ، على الرغم من أنه فى حرز عظيم من أن يجعل قرينا لهم ، إيذان بهول العذاب ، وكمال فظاعته ، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يحيق به ، وفيه - كما قالوا - هضم لنفسه صلى الله عليه وسلم ، وإظهار لكمال عبوديته ، وإنباء بأن العبودية مهما سمت وعلت ، فإنها تؤمر وتنهى ، إذ للنبوة على الرغم من سموها حد ، ينبغى أن تقف عنده ، فلا تتعداه بحال من الأحوال إلى مرتبة الألوهية الآمرة الناهية ، وفيه أيضا دلالة على أن النقمة والعذاب المستأصل قد يعم فيحيق بالطالح والصالح ، كما فى قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »[2] وروى عن الحسن رضى الله عنه أن الله جل جلاله ، أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن له فى أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها ، أهى فى حياته أم بعد مماته ، ولذا أمره بهذا الدعاء ... وفى قوله تعالى : « وإنا على أن نريك مانعدهم لقادرون » أكد الخبر بإن واللام وتقديم الجار والمجرور ، وذلك دفعا لإنكار

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٣ . (٢) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

المشركين ، حيث كانوا ينكرون العذاب، ويسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخبرهم به ، بل قالوا : معاندين مكابرين : « اللهُمَّ إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأمطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أوِ ائتِنا بِعَذابٍ أليمٍ »(١) لذا أكد الإخبار بقدرة الله عز وجل على تعذيبهم ، وأن يرى نبيه صلى الله عليه وسلم هذا العذاب الذى ينزله بهم ، ولكنه يؤخره لحكمة ، و لكونه صلى الله عليه وسلم فيهم ، وهم لا يعذبون عذاب استئصال وهو بين أظهرهم، وفى قوله : « نعدهم » استعارة عنادية تهكمية حيث استعير الوعد للوعيد على سبيل السخرية والتهكم ، واشتق منه « نعد » بمعنى « نوعد » على سبيل الاستعارة التبعية العنادية ... والأمر فى قوله تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » حث للنبى صلى الله عليه وسلم إلى ما يليق بشأنه الكريم من حسن الأخلاق وكمال الفضائل ، وهضم لنفسه كما وضحنا فى قوله : « قل رب إما تريني » ، وأوثر التعبير بصيغة التفضيل « أحسن » لكونه أبلغ من أن يقال : ادفع بالحسنة السيئة ... وفى قوله تعالى : « نحن أعلم بما يصفون » قدم المسند إليه « نحن » على خبره الفعلى للدلالة على القصر ، قصر علم ما يصفون على ضمير العظمة ، قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا ، وفيه شدة وعيد للمشركين ، وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إلى الله عز وجل ... وفى قوله تعالى : « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » استعيرت « الهمزات » للوساوس والحث على المعاصى ، إذ الهمز فى الأصل النخس والدفع بيد أو غيرها فبينه وبين الوسوسة شبه ظاهر ، وجمعت « الهمزات » للمرات والدلالة على تنوع الوساوس وتعدد الشياطين . وفى الأمر بالتعوذ من الحضور بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة فى التحذير من ملابستهم ، وحث على الالتجاء إلى الله تعالى والاستعاذة به لدفع مكايدهم ، ودرء وساوسهم ، وفى إعادة الفعل « أعوذ بك » وتكرار النداء « رب »

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

إظهار لكمال العناية بالمأمور به ، وحث على الاعتناء ، وعرض نهاية الابتهال في الدعاء والتضرع ، وفي قوله : « أن يحضرون » حذف الجار والمجرور للدلالة على وجوب الاستعاذة من حضورهم في كل حال من الأحوال ، والمعنى : وأعوذ بك رب أن يكونوا معي في حال من الأحوال ، فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة ، والإغراء على الشر ، والصرف عن الخير ...

معاني الآيات الكريمة : بعد أن أبرزت الآيات السابقة عناد الكفرة ، وإصرارهم على الضلال ، وتمسكهم بمقالة الأولين في إنكار البعث والنشور ، أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل ، قل لهم يامحمد جوابا لهم عما قالوه في إنكار البعث وزعمهم أن ماجئت به أساطير الأولين ، قل لهم : لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات ؟من مالكها؟ومن المتصرف فيها بالإيجاد والإفناء؟إن كان عندكم علم فأخبروني بذلك .. سيقولون لله ، يقرون ويعترفون بأن ذلك له عز وجل ، فهو وحده الذي له الأرض ومن فيها ومن عليها ، أليس في ذلك العظة والعبرة ، لمن أراد أن يتذكر ويتدبر ويعتبر ، فيقلع عن كفره وطغيانه ؟ بل ولكنه العناد والمكابرة والإصرار على الكفر والضلال ... قل من رب السموات السبع ؟ : من خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له جلت قدرته ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ومن رب العرش العظيم ، الذي لا يقدر قدره أحد إلا الله عزوجل ؛ ففي الحديث : « ماالسموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة » ... سيقولون : الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، هو خالقها وخالقه ، فهما لله تعالى ، وإن تعجب فعجب صنيعهم ، يقرون لله بذلك

ولا يخافون عقابه ولا يتقون عذابه ، فيقلعون عما هم فيه من باطل وضلال ... قل لهم يا محمد : من بيده خزائن كل شيء ؟ ومن المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدبير ؟ وهو يغيث من استجاربه ويحمى من التجأ إليه ، ولا يغيث أحد منه أحدا ؟ أخبروني بذلك إن كنتم من أهل العلم ، سيقولون : الملك كله والتدبير لله خالق كل شيء ، ومالك الملك ، فكيف يخدعون ويصرفون عن طاعته وتوحيده وهم يعلمون ويقرون بأنه وحده المالك المدبر ؟ ألا يرتدعون وينزجرون ؟ . . . فالآيات الكريمة إعلام وإخبار بربوبيته تعالى ووحدانيته وملكه الذى لا يزول وقدرته التى لا تحول ، وهى تدل على جواز جدال الكفرة وإقامة الحجة عليهم ، وتنبه إلى أن من ابتدأ بالخلق والإيجاد والإبداع فهو المستحق للألوهية والعبادة(١) ...

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه قد بالغ فى الاحتجاج عليهم ، ودفعهم بالأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة التى تدل على أن ماجاءهم هو الحق والصدق ، وأنهم كاذبون فى وصفهم وأقوالهم واعتقادهم أنه تعالى قد اتخذ صاحبة وولدا ، ولا دليل لهم على ذلك ، وإنما هم متمسكون بما وجدوا عليه آباءهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »(٢) ، وينزه سبحانه وتعالى نفسه عن الولد والشريك ، إذ لو قدر تعدد الآلهة لا نفرد كل إله بما خلق ، فما كان ينتظم الكون : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا »(٣) ولكن المشاهد أن الكون منتظم « مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ »(٤) ... لو كان فيهما آلهة إلا الله لعلا بعضهم على بعض ، كل منهم يطلب قهر الآخر ، هذا يريد تحريك جسم مثلا ، وذاك يريد سكونه ،

---

(١) انظر القرطبى ١٢/١٤٥ .
(٢) سورة الزخرف آية ٢٣ . (٣) سورة الأنبياء آية ٢٢ .
(٤) سورة الملك آية ٣ .

فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، ويمتنع أن يجتمع مراداهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون التعدد محالا ، تعالى الله عما يقولون ، وتنزه عما يصفون ، سبحانه عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون . . . ثم يخبر المولى جل جلاله ، أنه قادر على أن يهلك أولئك الكفرة ، وأن يرى نبيه صلى الله عليه وسلم ماتوعدهم به وأنذرهم إياه ، فتلك سنة الله فى إهلاك الظالمين وتعذيبهم ، ولكنه تبارك وتعالى تفضلا منه وإنعاما ، وعد ألا يعذبهم ويستأصلهم ورسوله الأمين فيهم « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »[1] ، ويأمره عز وجل أن يدعو ربه إن كانت إرادته تعالى أن يريه مايوعدون من العذاب والهلاك ألا يجعله فيهم « رب إما تريني مايوعدون . رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين » ويرشده جل وعلا إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »[2] ويأمره سبحانه وتعالى أن يستعيذ بالله من همزات الشياطين ونزوغهم ووساوسهم ، ومن أن يحضروه فى أمر من الأمور « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »[3] . « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَٰهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ »[4] وذلك لأن الشياطين لاتنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف ، وفى الصحيح : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » ... « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٣ . (٢) سورة فصلت آية ٣٤ .
(٣) سورة فصلت آية ٣٦ (٤) سورة الناس آية ١—٦ .

يحضرون » ولهـــذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور كلها لطرد الشيطان، عند الأكل والنوم والجماع والذبح والخروج والدخول والعقد ، وغير ذلك من الأمور ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخطبنى الشيطان عند الموت » وروى الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه كلمات ، يقولهن عند النوم من الفزع « باسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ...

* * *

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

اللغة والإعراب : « حتى » ابتدائية دخلت على الجملة الشرطية ، وهى غاية لما قبلها ، والمعنى : وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين فلا أكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين وتحضرهم حتى إذا جاء أحدهم الموت ، وقيل إنها متعلقة

بقوله « يصفون » الثانى ، والمعنى : لايزالون على سوء المقالة والطعن فى الرسالة حتى إذا جاء ، ويكون قوله تعالى : « وقل رب أعوذ بك.. » اعتراضاً مؤكداً للإغضاء المدلول عليه بقوله عز وجل : « ادفع بالتى هى أحسن » أى : ادفع مستعينا بالله تعالى على الشيطان أن يستنزلك عن الحلم ، ويغريك على الانتصار منهم ، وقيل إنها مردودة على قوله تعالى : « يصفون » الأول أو على قوله : « يشركون » ، وهذا ليس بقول ، وقيل إنها مردودة على قوله تعالى : « وإنهم لكاذبون » ، ويكون قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد » إلى هنا كالاعتراض تحقيقا لكذبهم . وتأكيدا لاستحقاقهم العذاب ، ويرى البعض أن « حتى » هنا ابتدائية فحسب ، وليست غاية لما قبلها ، وهذا ليس برأى أيضا ، لأنها إذا كانت ابتدائية لا تفارقها الغاية ... والضمير فى « أحدهم » راجع إلى الكفار ، والمراد بمجىء الموت ظهور أماراته ، ومجىء علاماته ، أى : إذا ظهر لأحدهم أمارات الموت وبدت له أحوال الآخرة قال تحسرا وندما على ما فرط فى جنب الله تعالى « رب ارجعون » أى ردونى إلى الدنيا ، وخطاب الله تعالى بلفظ الجمع « ارجعون » للتعظيم والإجلال ، كما فى قول القائل : -

ألا فارحمونى يا إله محمد   فإن لم أكن أهلا فأنت له أهل

وقول الآخر:

وإن شئتِ حرمتُ النساء سواكم
وإن شئتِ لم أطعم نُقَاخا ولا بَرْدا[1]

فالتعظيم كما يكون فى ضمير المتكلم يكون فى ضمير المخاطب وضمير الغائب والاسم الظاهر ، ولا وجه لإنكار ذلك ، وقيل الواو لكون الخطاب للملائكة والكلام على تقدير مضاف أى : ياملائكة ربى ارجعونى ، وجوز أن يكون

---

(١) النقاخ : الماء البارد العذب الصافى الذى يكاد ينقخ الفؤاد ببرده : أى يستخرجه ، والبرد هنا المراد به : الريق أو النوم .

« رب » استغاثة به تعالى شأنه و« ارجعونى » خطاب الملائكة ، وكأنهم لما استغاثوا بالله تعالى قال قائلهم : « رب » ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : « ارجعون » وقيل جمع الضمير ليدل على معنى تكرار الفعل أى : ارجعنى ارجعنى ارجعنى ، ومثله فى التثنية قوله تعالى : « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ »[1] قيل معناه : ألق ألق ، وقول امرىء القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أى قف قف ، وهذا ينبىء بما يصيب الكفرة ويحل بهم عند مواجهة الموت من دهش وحيرة وتخبط ... « لعلى أعمل صالحا فيما تركت » لعل : للترجى فهو يتمنى الرجوع ليحقق الإيمان الذى لم يحققه طيلة حياته ، ويجوز ان تكون « لعل » للتعليل أى : ارجعونى لأعمل ، و « صالحا » صفة لموصوف محذوف والتقدير : لعلى إن رجعت إلى الدنيا أعمل عملا صالحا ، أى : من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير ، و« ما » موصول بمعنى الذى حذف عائده ، والمعنى : فى الذى تركته من العمل أو من الإيمان ، فقد ترك ذلك طوال حياته حتى جاءه الموت ، أو فيما تركته من المال والدنيا وعلى هذا يكون الترك بمعنى المفارقة ، جعل مفارقة المال والدنيا تركا لهما .. « كلا إنها كلمة هو قائلها » كلا : كلمة زجر وردع لهم ، لطلبهم الرجوع ، واستبعاد له ، والضمير فى « إنها » يرجع إلى قوله : « رب ارجعون لعلى أعمل ... » أى : إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة ، فلا يخليها ، ولا يسكت عنها ، لاستيلاء الحسرة ، وتسلط الندم عليه ، فتقديم المسند إليه لتأكيد القول وتقويته ، أو هو قائلها وحده ، فلا يجاب إليها ولا تسمع منه ، ولا يعتد بقوله ، وكأن المعتد به شريك له فى القول ، فالتقديم للاختصاص ، وهذا كثير فى كلامهم ، تقول لمن كلمك بما لا طائل تحته ، ولا جدوى فيه : تكلم واستمع لنفسك واشتغل أنت وحدك

---

(١) سورة ق آية ٢٤ .

بهـــذا القول ، تريد أنه مما لا يسمع منه ولا يستحق الجواب ، والـكلمة بمعنى الـكلام كما فى قولهم : كلمة الإخلاص ، وألقى الخطيب كلمة ، وإطلاق الـكلمة على الـكلام مجاز عند النحاة ، وعند اللغويين قيل حقيقة وقيل مجاز مشهور ... ويجوز أن يكون معنى « إنها كلمة هو قائلها » : أنه مجرد قول يقال ، وأنه لو أجيب القائل إلى ذلك الذى طلبه ، ورد إلى الدنيا ، لمـا حصل منه الوفاء ، كما فى قوله تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[1] ، وقيـل الضمير ، المسند إليه « هو » يرجع إلى الله جـــل جلاله ، أى لا خلف فى إخباره ، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها[2]... «ومن ورائهم» الوراء قيل بمعنى : بعد ، أى : ظرف زمان ، والمعنى : ومن بعد موتهم ، ومنه قوله تعـالى : « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ »[3] ، وقوله عز وجل : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ »[4] ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

أى : وليس بعد الله ، وقيل بمعنى أمام أى : ومن أمامهم برزخ ، فهو إما من أسماء الأضداد ؛ لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر ، ومنه قول الشاعر :

ومن ورائك يوم أنت بالغـــه ... لا حاضر معجز عنه ولا بادى

وقول الآخر :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى ... وقومى تميم والفلاة ورائيا

وقوله تعالى : « وكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا »[5] أى : وكان أمامهم ، أو ليس من الأضداد ، ولـكنه من توارى ، أى : استتر ، فصار البرزخ والعذاب وجهنم من ورائهم ؛ لأنها لا ترى ، وقيل هو كما يقال : هذا الأمر

(١) سورة الأنعام آية ٢٨ .
(٢) انظر فتح القدير حـ ٣ ص ٤٩٨
(٣) سورة إبراهيم آية ١٦ .
(٤) سورة إبراهيم آية ١٧ .
(٥) سورة الـكهف آية ٧٩ .

من ورائك أى : سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أى : فى طلبه ، والضمير المضاف إليه يرجع إلى أحد فى قوله : « حتى إذا جاء أحدهم .. » وجمع باعتبار المعنى لأنه فى حكم الكل ، أى : حتى إذا جاء كل واحد منهم ، كما أفرد فيما تقدم باعتبار اللفظ ... « برزخ » البرزخ هو الحاجز بين الشيئين ، وقد اختلف فى المراد فقيل : إن المراد ومن ورائهم حاجز من القبور ، بين الموت والبعث باق إلى يوم يبعثون ، وقيل حاجز بينهم وبين الجزاء التام ، باق إلى يوم القيامة، فإذا جاء ذلك اليوم جوزوا على أتم وجه ، وقيل هو الأجل ما بين النفختين وقيل حاجز بينهم وبين الرجعة إلى يوم يبعثون من قبورهم ، وهو يوم القيامة ، وهذا تعليق لرجعتهم إلى الدنيا بالمحال ، كتعليق دخولهم الجنة بقوله تعالى : « حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ »[1] ... « فإذا نفخ فى الصور » الصور هو القرن الذى ينفخ فيه ، والمراد بالنفخ : إما النفخة الأولى التى تصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وإما النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور ، وهذا أولى ، وقيل : الصور جمع صورة لا القرن ، والمعنى : فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس والحسن وابن عياض « فى الصور » بضم الصاد وفتح الواو ، وقراءة ابن رزين : « فى الصور » بكسر الصاد وفتح الواو ، فإن المذكور فى هاتين القراءتين جمع صورة ، لا بمعنى القرن قطعا ، والأصل توافق معانى القراءات ، ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القرن ، الذى جاء فى الخبر ، ودلت عليه آيات أخر ، وبين النفخ فى الصور جمع صورة لاختلاف المقامات والسياقات التى ورد فيها الحديث عن النفخ ... « فلا أنساب بينهم يومئذ » التنوين فى « يومئذ » عوض عن جملة محذوفة ، أى : يوم إذ نفخ فى الصور ، والمراد بنفى الأنساب : نفى نفعها ، أو التفاخر بها ، أو الالتفات إليها ، أى : لا يتفاخرون بالأنساب فى ذلك اليوم ولا يذكرونها ، لما هم فيه من الحيرة والدهشة ، أو لا تنفعهم

---

(١) سورة الأعراف آية ٤٠ .

الأنساب شيئاً فى ذلك اليوم، فهى منزلة العدم لعظم الهول واشتغال كل امرىء بنفسه « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[1] فالمرء لا يلتفت فى ذلك اليوم إلى النسب ، ولا يخطر بباله ، لذهوله من عظم الهول ، وهذا الحكم قيل إنه خاص بالكفرة لما يقتضيه عود الضمير فى قوله « بينهم » عليهم ، وقيل إنه عام لقوله عقب هذه الآية : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » ، وقيل لا ينفع نسب يومئذ إلا نسبه صلى الله عليه وسلم بشرط الإيمان ، فالكافر والعياذ بالله لا نفع له بذلك أصلا ، والفاء فى قوله « فلا أنساب » واقعة فى جواب إذا ، ولا نافية للجنس تعمل عمل إن ، وأنساب اسمها مبنى على الفتح ، وبينهم خبرها ... « ولا يتساءلون » أى لا يسأل بعضهم بعضا عن حاله وممن هو ونحو ذلك ، لانشغال كل منهم بأمر نفسه « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ »[2] وذلك عقب النفخة الثانية من غير فصل ، فهو مقيد بيومئذ وإن لم يذكر بعده اكتفاء بما تقدم ... ونقرأ فى آى الذكر الحكيم إثبات تساؤل بين المؤمنين يوم القيامة « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[3] ، وبين الكفرة « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[4] ، كما نقرأ تساؤلهم فى ذلك اليوم « قَالُوا : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ »[5] ، فما وجه الجمع بين إثبات التساؤل فى تلك الآيات وبين نفيه فى هذه الآية ؟ :

---

(١) سورة عبس آيات ٣٤ — ٣٧ . (٢) سورة المعارج آيات ١٠ — ١٤ .
(٣) سورة الصافات آية ٥٠ . (٤) سورة الصافات آية ٢٧ .
(٥) سورة يس آية ٥٢ .

يكمن وجه الجمع بين نفى التساؤل وإثباته فيما يلى :

١ — يجوز أن يقال إن قولهم « من بعثنا من مرقدنا ؟ » كان قبل تحقق أمر تلك النفخة الثانية لديهم ، وأن الحكمين المذكورين - نفى الأنساب ونفى التساؤل - كانا بعد تحققها ومعرفة أنها لماذا كانت ، ويحتمل أن يكون الحكمان فى مبدأ الأمر قبل القول المذكور ، كأنهم حين يسمعون الصيحة يذهلون عن كل شىء ، الأنساب وغيرها ، كالنائم إذا صيح به صيحة مفزعة فهب من منامه فزعا ذاهلا عمن عنده مثلا ، فإذا سكن روعهم فى الجملة قال قائلهم : من بعثنا من مرقدنا ؟ ..

٢ — أن يكون تساؤل الكفرة المنفى هنا عقب النفخة الثانية ، وأما تساؤلهم المثبت فهو عند جهنم ومعاينة العذاب ، وهو بعد النفخة الثانية بكثير ، وكذا تساؤل المؤمنين المثبت فإنه فى الجنة كما يرشد سياق الآيات الكريمة : « وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[1] فالمواطن مختلفة ، والإثبات باعتبار بعضها والنفى باعتبار بعض آخر ..

٣ — قد يقال إن التساؤل المنفى هنا تساؤل التعارف ونحوه ، مما يترتب عليه دفع مضرة ، أو جلب منفعة ، والتساؤل المثبت لأهل النار تساؤل وراء ذلك ، وقد بينه تبارك وتعالى بقوله عز قائلا : « قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ »[2] ، كما أن التساؤل المثبت لأهل الجنة تساؤل استئناس ، وهو واضح فى قوله تعالى : « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ »[3] .

٤ — قيل المنفى التساؤل بالأنساب ، فكأنه قيل : لا أنساب بينهم ولا

---

(١) سورة الصافات الآيات ٤٨ — ٥٠ .
(٢) سورة الصافات آية ٢٨ .
(٣) سورة الصافات آية ٥١ .

يسأل بعضهم بعضا بها ؛ لأنها لا تنفع ، والتساؤل المثبت ليس تساؤلا بالأنساب كما هو واضح ..

٥ — روى جماعة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن وجه الجمع بين نفى التساؤل هنا وإثباته هناك فقال : إن نفى التساؤل فى النفخة الأولى حين لا يبقى على وجه الأرض شىء وإثباته فى النفخة الثانية ، وعلى هذه الرواية فالمراد عنده بقوله تعالى « فإذا نفخ فى الصور » النفخة الأولى ، وهى إحدى روايتين عنه ، والرواية الثانية حمله على النفخة الثانية ، وعندئذ يختار فى وجه الجمع أحد الأوجه المذكورة قبل . . . « فمن ثقلت موازينه » الموازين جمع موزون ، وهى الموزونات من الأعمال أى : الصالحات التى لها وزن وقدر عند الله تعالى ، أو جمع ميزان ، والمعنى عليـــه : فمن ثقلت موازينه بالحسنات ، ووجه جمعه ـ مع أن المشهور الصحيح أن الميزان مطلقا واحد ـ باعتبار تعدد الأوزان أو الموزونات ، وكذا إذا قلنا بأن ميزان كل شخص واحد وفى الكلام مضاف مقدر أى : كفة موازينه ، والضمير المضاف إليه فى « موازينه » يرجع إلى « من » وقد أفرد مراعاة للفظها ، أما اسم الإشارة والضميران فى قوله « فأولئك هم المفلحون » فقد روعى فيها معنى « من » ، وجملة « فأولئك هم المفلحون » خبر من ، والرابط الفاء والضمير ... « ومن خفت موازينه » اختلف العلماء فى أعمال الكفرة أتوزن تلك الأعمال أم تحبط ؟ فالله عز وجل يقول : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا »[1] فذهب البعض إلى أن الوزن ليس مختصا بالمسلمين ، بل الكفار أيضا توزن أعمالهم التى لا توقف لها على الإسلام ، وادعى القرطبى أن الصحيح أنها يخفف بها عذابهم وإن لم تكن راجحة ، كما ورد فى حق أبى طالب ، أما قوله : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » فمعناه لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم ، كما يقال : ما لفلان عندنا

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٥ .

وزن أى : قدر لخسته ، ويوصف الرجل بأنه لاوزن له لخفته ، وسرعة طيشه، وقلة تثبته ، والمعنى على هذا أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة ... وذهب الكثير إلى أن الوزن مختص بالمسلمين ، وأما الكفار فتحبط أعمالهم كيف كانت ، والمعنى على هذا : لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم؛ لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ، وهؤلاء لا حسنات لهم ... وبناء على ذلك فالمراد بالموازين فى قوله : « ومن خفت موازينه » إما موازين أعماله الحسنة التى يخفف بها عذابه ، أو موازين أعماله التى لاوزن لها ولا اعتداد بها وهى أعماله السيئة ... « فأولئك الذين خسروا أنفسهم » أى: ضيعوها بتضييع زمان استكمالها ، وتركوا ما ينفعها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، والجملة خبر من ، وقــــد جاء اسم الإشارة « أولئك » ، للجمع ، وكذا جمع الضميران : « خسروا أنفسهم » مراعاة لمعنى الموصول « من » ، وأفرد فى الصلة « موازينه » مراعاة للفظه كما فى الآية السابقة ... « فى جهنم خالدون » خبر ثان لأولئك ، والخبر الأول اسم الموصول « الذين » ، وجوز أن يكون « فى جهنم خالدون » خبرا لمبتدأ محذوف أى هم خالدون فى جهنم ، والجملة إما استئنافية جىء بها لبيان خسرانهم أنفسهم ، وإما خبر ثان أيضا لأولئك ، ويجوز أن يكون الذين نعتا لاسم الإشارة ، و« خالدون » هو الخبر ، كما يجوز أن يكون « خالدون » مع معموله « فى جهنم » بدلا من الصلة : « خسروا أنفسهم » ، وجعله كذلك نظرا لأنه بمعنى يخلدون فى جهنم ، وبذلك يصلح لأن يكون صلة كما يقتضيه الإبدال من جملة الصلة ... « تلفح وجوههم النار » جملة حالية أو مستأنفة أو خبر آخر لأولئك ، واللفح مس لهب النار الشىء وهو أشد تأثيرا من النفح ، والمراد : تحرق وجوههم النار ، يقال : لفحته النار إذا أحرقته ، ولفحته بالسيف إذا ضربته ، وخصت الوجوه بذلك ، لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار ، وهذا هو السر أيضا وراء تقديمها على الفاعل ... « وهم فيها كالحون » هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، والكالح : الذى تشمرت شفتاه وبدت أسنانه من أثر ذلك اللفح ، فإن النار تلفحهم

لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ، وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية : « تشويه النار ، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته » وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الكلوح بسور الوجه وتقطيبه ، ويقال : دهر كالح أى : شديد يكلح الناس بشدته ، والفعل : كلح وأكلح وتكلح ، يقال : كلح يكلح كلوحا وكلاحا بضم الفاء فى المصدرين ، وتكلح تكلحا ، وأكلحه الأمر يكلحه فهو مكلح ، أنشد ثعلب :

ولوى التكلح يشتكى سغبا وأنا ابن بدر قاتل السغب

وقال لبيد يصف السهام :

رَقَمِيَّاتٌ عليها ناهض تُكْلِحُ الأَرْوَقَ منهم والأَيَلْ[(1)]

ويقال : سنة كلاح بفتح الفاء أى : مجدبة ، وتكلح البرق أى تتابع ودام برقه ..[(2)] وقرىء « وهم فيها كلحون » بغير ألف جمع كلح كحذر ، صيغة مبالغة على وزن « فعل » ... « ألم تكن آياتى تتلى عليكم » على إضمار القول ، أى يقال لهم توبيخا وتقريعا وتعنيفا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب : ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا فكنتم بها تكذبون ؟ . . « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا » جملة مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، أو جواب للسؤال المذكور والشقوة مصدر وهى ضد السعادة ، قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ... وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا . »[(3)] والمراد بها : لذاتنا وشهواتنا وسوء أعمالنا ، فأطلق المسبب وأريد السبب ، وغلبت علينا أى : استولت علينا وملكتنا وتمكنت منا ، ونسبة الغلب إلى الشقوة باعتبار تشبيهها بمن يتحقق منه ذلك ، وقرىء : شقوتنا ،

---

(١) الأروق : طويل الأسنان . والأيل : قصيرها .

(٢) انظر لسان العرب مادة كلح . (٣) سورة هود الآيتان ١٠٦ ، ١٠٨

بفتح الشين وشقاوتنا ، بفتح الشين وألف بعد القاف ، وشقاوتنا بكسر الشين، وهى فى جميع ذلك مصدر « شقى » ومعناها : ضد السعادة كما ذكرت... « وكنا قوما ضالين » أى : عن الحق بسبب تلك الشقاوة ، مكذبين بما يتلى من الآيات ، فما تنسب يارب إلى حيف فى تعذيبنا ... ولا يجوز أن يكون هذا اعتذارا بما علمه الله تعالى فيهم وكتبه عليهم من الكفر ، أى غلب علينا ماعلمته وكتبته علينا ، وكنا بسبب ذلك قوما ضالين ، فما وقع منا من التكذيب بآياتك لاقدرة لنا على دفعه، لايجوز هذا ولايصلح للاعتذار، لأنه يستلزم انقلاب العلم جهلا، وهو باطل ومحال، فإنه سبحانه وتعالى ماكتب إلا ماعلم، وهو جل وعلا قد علم ماهم عليه فى نفس الأمر من سوء الاستعداد المؤدى إلى سوء الاختيار ، فالعلم تابع للمعلوم ، ولذا فالآية اعتراف منهم بضلالهم، ويؤيد دعوى الاعتراف قوله تعالى حكاية عنهم : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » أى : ربنا أخرجنا من النار ، وارجعنا إلى الدنيا ، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه فيها من الكفر والمعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم ، وذلك لأن اجتراءهم على هذا الطلب أوفق بكون ماقبله اعترافا بضلالهم ، فإنهم إنما قالوه تمهيدا للطلب المذكور ، إذ هو مظنة تسكين لهيب الغضب ، ثم إنهم قد طلبوا ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا ، لما شاهدوه من سوء حالهم فى ذلك اليوم ، فلعلهم ظنوا تغير ماقد كانوا عليه من سوء العمل وسوء الاستعداد ، لو رجعوا إلى الدنيا ، وفى قولهم « عدنا » إنباء بأنهم حين الطلب على الإيمان والطاعة فيكون الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا :الثبات عليهما لينتفعوا بهما بعد أن يموتوا ويحشروا ... « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون » : الخسء إبعاد بمكروه ، من خسأت الكلب إذا زجرته وطردته فخسأ أى : انزجر ، والمراد : انزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت ، وتباعدوا تباعد سخط وذل، واسكتوا سكوت هوان وابعدوا فى جهنم بعد الكلب ، ولا تكلمون فى إخراجكم من النار ، ورجوعكم إلى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم ، وقيل المعنى : ولا تكلمون رأسا ، وهو آخر كلام يتكلمون به ... « إنه كان فريق من عبادى يقولون »

الضمير ضمير الشأن أى : إن الشأن كان فريق ، والجملة مستأنفة استئنافا تعليليا لما قبلها من الزجر عن الدعاء ، وقرىء « أن » بفتح الهمزة ، فتقدر لام التعليل ، أى : لأن الشأن كان فريق من عبادى فى الدنيا التى تريدون الرجوع إليها ، والفريق : الطائفة من الناس، والمراد بهم : المؤمنون، وقيل هم الصحابة ،وقيل هم أهل الصفة ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ... « يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » الجملة من القول ومقوله فى محل نصب خبر كان ، وكان واسمها وخبرها فى محل رفع خبر إن ، وجملة « وأنت خير الراحمين » فى محل نصب حال من الفاعل المستتر فى « اغفر وارحم» والذى يعود إلى «الرب» جل جلاله ، وأصل الغفر : التغطية والستر ، يقال : غفر الله الذنب أى : ستره فهو الغفور والغفار ، صيغتا مبالغة ، ومعناهما: الساتر لذنوب عباده ، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، والرحمة الرقة والتعطف ، ومثلها المرحمة ، يقال : رحمته بكسر الحاء، وترحمت عليه دعوت له بالرحمة ، واسترحمه : سأله الرحمة ، وتراحم القوم : رحم بعضهم بعضا ، وتطلق الرحمة على المغفرة ، وعلى الرزق، وعلى الخصب ، والرحم : أسباب القرابة ، ومنبت الولد ، والرحمن من أسماء الله عز وجل ، وبنيت صيغته على « فعلان » لأن معناه الكثرة ، وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء ، وقدم الرحمن على الرحيم فى البسملة ، لأن الرحمن مقصورة على الله عز وجل والرحيم قد يكون لغيره ، وجيء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به فى قوله تعالى : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً »[1] . . . « فاتخذتموهم سخريا » سخريا : مصدر سخر ، زيدت عليه ياء النسب للمبالغة ، يقال سخر : سخرا وسخريا كما قيل : الخصوصية فى الخصوص ، قرىء بضم السين وكسرها والمعنى عليهما واحد وهو الهزؤ ، وقيل المكسور من الهزؤ والمضموم من السخرة والعبودية والاستخدام بغير أجرة . وقيل إذا أريد السخرة والاستعباد ضمت السين

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

لاغير ، وإذا أريد الاستهزاء جاز الضم والكسر ، والمعنى : فاتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين أو مسخرين مستعبدين ، و « اتخذ » : متعد إلى مفعولين، المفعول الأول : الضمير العائد إلى المؤمنين ، والمفعول الثانى : سخريا .. « حتى أنسوكم ذكرى » بتشاغلكم بالاستهزاء بهم ، أى : اتخذتموهم سخريا إلى هذه الغاية ، وهذا الحد ، وهو نسيان الذكر ، فإنهم نسوا ذكر الله تعالى ، لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ، فحتى هنا غائية و « أنسى » : عدى بالهمزة إلى المفعول الثانى ، فنسى : ينصب مفعولا واحد ، يقال : نسيت الشىء ، فإذا دخلت عليه الهمزة عدته إلى المفعول الثانى، يقال : أنسانى فلان كذا ، قال تعالى : « فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ »[1] فنسى : نصب مفعولا واحدا وهو الحوت ، وأنسى : نصب مفعولين ، الياء والهاء ، والمفعولان فى الآية الكريمة : كاف الخطاب ، العائد إلى الكفرة وذكرى ... « وكنتم منهم تضحكون » وذلك غاية الاستهزاء ، والمعنى : حتى نسيتم ذكرى باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فعدى الفعل « نسى » بالهمزة ، ونسب ذلك إلى عباده المؤمنين لكونهم السبب ... « إنى جزيتهم اليوم بما صبروا » أى : بسبب صبرهم على ما آذيتموهم فى الدنيا ، فالجملة مستأنفة لتقرير ماسبق ، والباء فى « بما صبروا » للسببية وما مصدرية ، والفعل « جزى » متعد لمفعولين ، الأول : الضمير العائد إلى « فريق من عبادى » ، والثانى : جملة « أنهم هم الفائزون » فأن واسمها وخبرها فى تأويل مصدر ، وقع مفعولا ثانيا للجزاء ، وهو يتعدى له بنفسه وبالباء ، والمعنى : إنى جزيتهم الفوز أو بفوزهم ، ويجوز اعتبار المفعول الثانى محذوفا ، وجملة « أنهم هم الفائزون » فى موضع جر بلام تعليل مقدرة ، أى: إنى جزيتهم اليوم أفضل جزاء ، لفوزهم بالتوحيد المؤدى إلى كل سعادة ، ولايمنع من ذلك تعليل الجزاء بالصبر ؛ لأن الأسباب لكونها ليست عللا تامة ، يجوز تعددها ، وقرىء « إنهم » بكسر الهمزة على أن الجملة استئناف معلل للجزاء ، أومبين لكيفيته ...

---

(١) سورة الكهف آية ٦٣ .

الأسرار والمزايا البلاغية : فى قوله تبارك وتعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت » عــبر بإذا دون « إن » لتحقق مجيء الموت ، فهو آت لا محالة ، وفى « جاء » استعارة تبعية ، حيث استعير المجيء للظهور ، واشتق منه جاء بمعنى ظهر ، وفى قوله : « جاء الموت » مجاز بالحذف ، إذ المراد مجيء أماراته ، وظهور أحواله وعلاماته ، والمعنى : حتى إذا ظهرت أمارات الموت لأحدهم ، وبدت له أحوال الآخرة .. ويجوز اعتبار « جاء » على حقيقته ، ويكون التعبير مجازا عقليا ، لأن الذى يأتى هو ملك الموت الذى وكل بهم ، فإسناد المجيء إلى الموت مجاز عقــلى علاقته السببية ؛ إذ الموت هو سبب مجيء الملك الموكل بقبض الأرواح عند انتهاء الآجال .. وفى التعبير حذف لمتعلق « حتى » دل عليه ما قبله ، والتقدير : وأعوذ بك رب أن يحضرون ، فأكون كالكفار الذين تهمزهم الشياطين وتحضرهم ، حتى إذا جاء أحدهم الموت ، أو دل عليه قوله : « يصفون » الثانى ، على أن حتى مردودة إليه ، وقوله : « وقل رب ... » اعتراض مؤكد للإغضاء المدلول عليه بقوله تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن » ، والمعنى : لا يزالون على سوء المقالة والطعن فى الرسالة حتى إذا جاء أحدهم الموت ... وفى قوله تعالى : « قال رب ارجعون » حذف حرف النداء لضيق المقام ، وجاء الخطاب بلفظ الجمع « ارجعون » تعظيما لله جل جلاله ، وقيــل الخطاب للملائكة على حذف مضاف والتقدير : يا ملائكة ربى ارجعونى ، وهذا الحذف ينبيء بما هم فيه من ضيق وتألم ، وكأن الكلمات لا تسعفهم لإتمام العبارة ، وقيل إنهــم استغاثوا بالله تعالى عند مجيء الموت فقال قائلهم : رب ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعونى ، وقيل جمع الضمير ليدل على تكرار الطلب ، فكأنه قال : رب ارجعنى ارجعنى ارجعنى ، وهذا ينبيء بما هم فيه عندئذ من الحيرة والتخبط ... وفى قوله تعالى : « لعلى أعمل صالحا فيما تركت » حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، وحذف مفعول ترك ، والتقدير : لعلى أعمل عملا صالحا فيما تركته من العمل والإيمان ، أو فيما تركته من المال أو الدنيا ، فعلى جعل المتروك العمل والإيمان يكون الترك بمعنى الإعراض والإهمال وعدم التحقيق ، أى :

فيما أعرضت عنه وأهملته فلم ألتفت إليه ولم أحققه ، وعلى جعـله المال أو الدنيا يكون الترك بمعنى المفارقة أى : فيما خلفته وفارقته من الدنيا أو المال، وفى إطلاق الترك على المفارقة مجاز بالاستعارة ، حيث استعير الترك للمفارقة بجامع الابتعاد فى كل ، ثم اشتق من الترك : ترك بمعنى : فارق على سبيل الاستعارة التبعية فى الأفعال ... وفى قوله تعالى «كلا إنها كلمة هو قائلها » مجاز مرسل فى « كلمة » حيث أطلقت على الـكلام المركب وهو قوله تعالى : « رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت » فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية ، إذ أطلقت الـكلمة وأريد الـكلام ، وتقديم المسند إليه فى قوله تعالى : « هو قائلها » إما للتوكيد أى : هو قائلها لا محالة فلا يخليها ولا يسكت عنها ، وذلك لتسلط الندم واستيلاء الحسرة عليه ، وإما للاختصاص أى : هو قائلها وحـــده ، إذ لا يجاب إليها ولا تسمع منـــه ، وذلك بتنزيل الإجابة والاعتداد منزلة القول ، حتى كأن المعتد بها شريك لقائلها فى القول .. وفى قوله تعالى : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » نفيت الأنساب والمراد نفى نفعها أو الافتخار بها أى : لا تنفع الأنساب يومئذ ، ولا تغنى شيئا ، ولا يفتخر بها كما كان يفتخر فى الدنيا ، وإنما الفخر هناك بالأعمال التى تنجى من الأهوال ، فحيث لا ينتفع بالأنساب يومئذ ، ولا يفتخر بها ، نزلت منزلة العدم ، فكأنها لم تكن ، وهذا ينبىء بعظم الهول ، واشتداد الخطب ، واشتغال كل امرىء بنفسه ، بحيث يفر من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، ولذا نفى التساؤل أيضا « ولا يتساءلون » فى ذلك اليوم ، فنفى التساؤل مقيد بما قيد به نفى الأنساب ، وهو « يومئذ » أى : يوم إذ نفخ فى الصور النفخة الثانية ، ولم يذكر هذا القيد بعد نفى التساؤل ، اكتفاء بذكره أولا عقب نفى الأنساب ... وفى قوله تعالى : « فأولئك هم المفلحون... فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد تعظيما لمن ثقلت موازينهم ، وتحقيرا لمن خفت موازينهم ، وذلك بتنزيل البعد المعنوى فيهما منزلة البعد الحسى ، فبعد من ثقلت موازينهم بعد تعظيم وسمو منزلة ، وبعد من خفت موازينهم بعد طرد وإبعاد وتحقير ، ولا يخفى عليك

القصر فى الموضعين ، قصر الفلاح على أولئك الذين ثقلت موازينهم ،وخسران الأنفس على أولئك الذين خفت موازينهم ، وقوله : « فى جهنم خالدون »إما أن يكون جملة مستأنفة فصلت عما قبلها لشبه كمال الاتصال أى : الاستئناف البيانى، حيث تضمنت الجملة الأولى سؤالا فحـواه : ما جزاء أولئك الذين خسروا أنفسهم فأجيب : هم فى جهنم خالدون ، وإما أن تكون خبرا ثانيا لأولئك ، كما يجوز أن يكون خبرا مفردا لا جملة ، فلا حذف عندئذ ، أو بدلا من جملة الصلة ـ كما أوضحنا فى أوجه إعرابه ـ ... وفى قوله تعالى : « تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » خصت الوجوه بالذكر ، وأوثرت على غيرها من أعضاء الجسد ، ثم قدمت على الفاعل « النار » ، وذلك لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار ، ومن دقائق التعبير القرآنى الجلية فى الآيتين ، دقة استخدام الأفعال والأسماء ، بحيث يتلاءم اللفظ مع المعنى تلاؤما تاما ، فلما كان خسران الكفرة أنفسهم قد تحقق فى الدنيا ومضى زمانه عبر عنه بالفعل الماضى : « خسروا » ، ولما كان خلودهم فى جهنم باقيا ومستمرا إلا ما شاء ربك ، وكان الكلوح ملازما لهم وثابتا ، فقد عبر عنهما بالاسم الذى يفيد الثبات والدوام : « فى جهنم خالدون ... وهم فيها كالحون » ولا يخفى عليك ما يفيده تقديم المسند إليه « هم » من تأكيد نسبة الكلاح إليهم ، ولما كان لفح النار لوجوههم وجلودهم متجددا ومستمرا، فقد عبر عنه بالفعل المضارع الذى يفيد الحدوث والتجدد الاستمرارى، « تلفح وجوههم النار .. » وصدق الله العظيم : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا »[1] .. وفى قوله تعالى « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » حذف القول وتقديره: يقال لهم تعنيفا وتوبيخا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب: ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا ؟ فالاستفهام للتقرير والتوبيخ والتعنيف ،

---

(١) سورة النساء آية ٥٦ .

ولحذف القول مغزى بلاغي جليل وهو أن تظـــل الصورة التي ارتسمت في ذهن القارىء لهؤلاء الكفرة والنار تلفح وجوههم، أن تظل باقية في الأذهان أثناء قراءة هذا السؤال الموجه إليهم تبكيتا وتوبيخا، ولو قيل : تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، يقال لهم : ألم تكن آياتي تتلى عليكم ، لانمحت الصورة التي تصورها العقل لأولئك الكفرة، حيث ينتقل الذهن منها إلى القول المقدر، وعندئذ يلقى السؤال التبكيتي وقد ولت تلك الصـــورة وتركها الذهن ، وتأمل ما يكمن وراء هذه الفاء « فكنتم بها تكذبون » إنها تنبىء بمدى مكابرة هؤلاء وشدة إعراضهم ونفورهم ، حيث عطلوا وسائل التفكير والإدراك ، وكذبوا بمجرد تلاوة الآيات عليهم ، دون أن ينظروا فيها ، لأن الفاء للترتيب والتعقيب كما تعلم ... وفي قوله تعالى : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين » فصلت جملة : « قالوا ربنا » عما قبلها لكمال الانقطاع بلا إيهام ، حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء لفظا ومعنى ، أو للاستئناف البياني ، حيث وقعت جوابا لسؤال مقدر أثارته الجملة الأولى ، وكأن سائلا سأل : فماذا قالوا؟ وبم أجابوا ذلك التعنيف ، فأجيب : قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ، ثم وصلت جملتا الجواب ، هذه « غلبت علينا شقوتنا » ، بما بعدها : « وكنا قوما ضالين » للتوسط بين الكمالين ، لاتفاقهما خبرا وإنشاء لفظا ومعنى ، ولا يقال : إن الجملتين مقول القول ، فلهما محل من الإعراب ، والفصل والوصل إنما ينظر إليه في الجمل التي لا محل لها من الإعراب ، لا يقال هذا ، لأنا نرى أن الجمل التي لها محل من الإعراب ، لا تختلف عن التي لا محل لها، فوراء كلتيهما تكمن الدقائق والمزايا ، التي يلتفت إليها في معرفة مواضع الفصل ومواضع الوصل[1] ..

ولا يخفى عليك ما وراء النداء : « ربنا » وحذف حرف النداء من معاني التذلل والخضوع والانكسار ، وشدة التقرب إليه تعالى، وفي « شقوتنا » مجاز مرسل علاقته المسببية، حيث أطلق المسبب « الشقوة » وأريد السبب وهو المعاصي والهوى واللذات ، وفي « غلبت علينا شقوتنا » استعارة مكنية ، حيث شبهت

(١) ارجع إلى الجزء الثاني من كتابنا : علم المعاني ص ١٧٧ .

الشقوة بمعنى المعاصى والهوى واللذات ، بقادر فانك لا يستطيعون مقاومته ، ثم حــذف المشبه به ، ورمز له بشىء من لوازمه ، وهو « غلبت » على سبيل الاستعارة المكنية ... وفى قوله تعالى «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» عبر بإن دون « إذا » للدلالة على أن عودتهم إلى ما كانوا عليه من العصيان والمكابرة، من الأمور المستبعدة المحالة ، فهم يخبرون بأنهم جادون مصرون ـ لو خرجوا من جهنم وردوا إلى الدنيا ـ على تغيير منهجهم الذى نهجوه، وتبديل مسلكهم الذى سلكوه ، والتعبير بالعود : « عدنا » يشير إلى أنهم حين الطلب على الإيمان فهم الطاعة، ولن يعودوا إلى الكفر والعصيان لو رجعوا إلى الدنيا، ووراء حذف الجار والمجرور فى قوله : « عدنا » ، مغزى دقيق وهو الإشعار بندمهم وشدة خجلهم ، إذ التقدير : فإن عدنا إلى الكفر والعصيان ، وكأنهم يأبون التلفظ بهذا المحذوف ، ويريدون طيه ومحوه ، والمراد بالأمر فى قوله : « أخرجنا » الدعاء والتضرع ، ولا يخفى عليك ما وراء النداء « ربنا » وحذف حرف النداء من الخضوع والتذلل ، وشدة التقرب إلى الله عز وجل ، وتأكيد الخبر : « فإنا ظالمون » يشعر بمدى انفعالهم ، وامتلاء أنفسهم به، وقوة إصرارهم على الإيمان والطاعة ، لو ردوا إلى الدنيا ... وفى قوله تعالى : « قال : اخسأوا فيها ولا تكلمون » وصــل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين ، حيث اتفقتا فى الإنشائية لفظا ومعنى ، وفصلت جملة «قال اخسأوا» عما قبلها للاستئناف البيانى، إذ وقعت جوابا لسؤال انبعث مما قبلها تقديره : فماذا قال لهم ربهم ؟ فأجيب : قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ، وفى « اخسأوا » استعارة مكنية حيث شبهوا بالكلاب ، التى تخسأ إبعادا وطردا وهوانا ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو « اخسأ » على سبيل الاستعارة المكنية ، ولا يخفى عليك ما وراء الأمر والنهى : « اخسأوا » ، ولا تكلمون » من الإهانة والإذلال ... وفى قوله تعالى : « إنه كان فريق من عبادى يقولون » : وضع الضمير فى « إنه » موضع الاسم الظاهر ، فهو ضمير الشأن ، والغاية من ذلك ترسيخ المعانى المذكورة وتثبيتها فى الأذهان ، ويرجع ذلك إلى الإيضاح بعد الإبهام ، الذى يكمن وراء

ضمير الشأن ، فالشيء إذا أبهم تطلعت النفوس ، وتشوقت لمعرفته ، فعنـد ما يأتى الإيضاح بعدئذ يقع فى النفس موقعه ، لأنه جاء والنفس عنه تبحث وإليه تتطلع ... وتجد التعبير حافلا بتكريم أولئك المؤمنين وتعظيمهم وإعلاء شأنهم، فقد وقعت هذه الجملة تعليلا لما قبلها من زجر الكفرة عن الدعاء ، ونكر «فريق»، وأضيف إلى الله تعالى «من عبادى» تعظيما وتكريما، ثم قيل بعد ذلك : «إنى جزيتهم اليوم بما صبروا إنهـــم هم الفائزون» وفى هذا غاية السخط والإذلال والإهانة لأولئك الكفرة ، ودلالة على اختصاص أولئك العباد المسخور منهم فى الدنيا اختصاصاً بالغا بالنعيم والفلاح والفوز ، ولايخفى عليك ما وراء ذلك من المبالغة فى تبكيت الكفرة وتحقيرهم ، حيث زاد فى خسئهم وإهانتهم بإعزاز وتكريم أضدادهم «المؤمنين» ... وفى قوله تعالى : «ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين» المراد بالأمر فى «اغفر لنا وارحمنا» الدعاء والتضرع ، وحذف حرف النداء فى «ربنا» يشعر بشدة قرب أولئك المؤمنين من ربهم وتفانيهم فى الطاعة والإيمان ، وإيثار التعبير بكلمة «خير» دون «أرحم» مثلا فى قوله تعالى : «وأنت خير الراحمين» ينبىء بأن الخيرية ثابتة لله جل جلاله ، حتى فى رحمته وغفرانه ، فهو يرحم ويغفر لمن هو أهل للرحمة والمغفرة ، وكذا فى ميدان التعذيب والعقاب ، تأمل قوله تعالى : «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»[1] وتدبر إيثار التعبير بكلمة «خير» دون «أقوى» مثلا ، فهو ينبىء بأن الخيرية ثابتة له تبارك وتعالى حتى فى انتقامه من الماكرين، إذ لا يفعل إلا ما هو عـدل ، ولا ينزل إلا ما هو حق ، ولا يعاقب إلا من استوجب العقاب ، ولا يرحم إلا من هو أهل للرحمة ، ففعله كله خـــير ... وفى قوله تعالى : «فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون» تنبىء الفاء فى «فاتخذتموهم» بمدى عناد الكفرة ومكابرتهم ، حيث لم يلتفتوا لمقالة المؤمنين ، ولم ينظروا فيها ويتدبروا ، بل أعقبوها بالسخرية والضحك

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٠ .

والاستهزاء ، وفى قوله : « سخريا » زيدت ياء النسب للمبالغة فى المصـــدر ، والدلالة على شدة استهزاء الكفرة بذلك الفريق المؤمن من عباد الله ،وفى إسناد الإنساء إلى الضمير العائد إلى المؤمنين فى قوله : « أنسوكم » مجاز عقلى علاقته السببية ؛ لأن أولئك المؤمنين لم ينسوهم الذكر ، وإنما كانوا السبب فيــــه ، ويشعر هذا المجاز بشدة اشتغالهم بالاستهزاء ، فقد بلغ مبلغا أنساهم ذكر ربهم، ومما ينبىء بذلك تقديم الجار والمجرور فى قوله : « وكنتم منهم تضحكون » فهو يدل على القصر ، قصر الضحك على كونه منهم دون غيرهم ، فقد اتخذوهم أضحوكة ، إذا أرادوا الضحك والتسلية ، فبهم يتسلون ، ومنهم يضحكون ، وهذا غاية الاستهزاء والاستخفاف ... وفى قوله تعالى : « إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى ، وهذا الاستئناف يؤذن بحسن حال المؤمنين وسمو مكانتهم ، فقـــد انتفعوا بما أوذوا فى الدنيا ، كما ينبىء بتوبيخ الكفرة وإهانتهم وتحقيرهم ، ومما يبرز مكانة المؤمنين ورفعة شأنهم ، قصر الفوز عليهم فى قوله : « أنهم هم الفائزون » وهـــذا القصر طريقه توسط ضمير الفصل ، أو تعريف المسند بأل الجنسية كما ترى ..

معانى الآيات الكريمة : يخبر الله جل وعلا أن أولئك الكفرة مستمرون فى كفرهم وضلالهم ، باقون فى عنادهم ومكابرتهم، حتى يحضرهم الموت ، وعندئذ يصرخون نادمين ، ويسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليصلحوا ما أفسدوا ويعملوا صالحا ، تلك حالهم عندما يفاجئهم الموت ، وهى حالهم عند العرض على ربهم: « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »[1] ، وعند مشاهدة العذاب : « وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ »[2]

---

(١) سورة السجدة آية ١٢ . (٢) سورة الشورى آية ٤٤ .

وهم فى غمرات عذاب الجحيم : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » ولكن هيهات هيهات ، أنى يستجاب لهم ، وقد عمروا الزمن الكافى للتذكر : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ »[1] ولذا فإن ما يقولونه ندما وتحسرا على ما فاتهم ، لن يلتفت إليه ، إنه مجرد كلام يقال ، وهم قائلوه لا محالة، ولو شاء الله أن ينظر إليهم ، ويردهم إلى الدنيا ، لسلكوا مسالك الغواية التى سلكوها ، وابتعدوا عن منهج الحق ، وصدق الله العظيم : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[2] ولذا زجرهم المولى جل وعلا ، وتوعدهم ، معلنا أن عذاب القبر أمامهم ، وسيستمر بهم إلى يوم يبعثون ، فإذا ما نفخ فى الصور النفخة الثانية ، نفخة النشور ، وعادت الأرواح للأجساد ، وهب الناس للحساب ، عندئذ لا تنفع الأنساب ، ولا يسأل حميم حميما ، بل إن المرء ليفرح أن يكون له حق على والده أو ولده أو أخيه أو زوجه ولو صغيرا ، حتى يأخذه منه ، يوم ينادى المنادى : ألا من كان له مظلمة فليجئ ، « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[3] فى هذا اليوم تنقطع الأنساب والأسباب والأسباب والأصهار ، إلا نسبه صلى الله عليه وسلم وسببه وصهره ، كما ورد فى أحاديث كثيرة ، وذلك بشرط الإيمان ، فالنافع فى ذلك اليوم هو الإيمان والعمل الصالح ، والمفلح الناجى هو الذى تثقل موازينه بالحسنات ، أما من خفت موازينه فهم الكفرة ، الذين ظلموا أنفسهم ، فباءوا بالخسران والهلاك ، هؤلاء يخلدون فى جهنم ، تغشى وجوههم النار ، تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ، ثم لا تنكف عنهم : « لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ

---

(١) سورة فاطر آية ٣٧ . (٢) سورة الأنعام آية ٢٨ .

(٣) سورة عبس الآيات ٣٤ – ٣٧ .

النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ »[١] وهم فى جهنم كالحون عابسون، قد شوهتهم النار ، فتقلصت شفاههم العليا حتى بلغت وسط رءوسهم ، واسترخت شفاههم السفلى حتى بلغت سررهم ، ويقال لهم توبيخا وتقريعا : ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ لقد أرسلت إليكم الرسل وبينت لكم الآيات : « لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[٢] « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »[٣] . ولا يجد الكفرة إلا الإقرار بالذنب ، وتغلب المعاصى والشهوات عليهم ، وأنهم كانوا قوما ضالين ، ويضرعون إلى الله عز وجل ، سائلين الخروج من جهنم ، والرجوع إلى الدنيا : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ »[٤] ويجيبهم المولى تبارك وتعالى : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » أى امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا فلا جواب لكم عندى، لأنكم انشغلتم عن ذكرى بالكيد لعبادى المؤمنين، والاستهزاء بهم ، والسخرية منهم والضحك والتهكم : « إِنَّ الذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ »[٥] فاليوم أجازيهم بما صبروا جنة وحريراً فقد فازوا فوزاً عظيما ، أما أنتم أيها الكفرة، فامكثوا فى جهنم خالدين : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ »[٦] فابقوا فى الجحيم ، وذوقوا عذاب النار ، جزاء وفاقا ، ولينعم المؤمنون بما أعد لهم فى الجنة ، فقد صبروا على ما آذيتموهم ، واليوم يجزون أفضل الجزاء ، إنهم هم الفائزون ، ونعم أجر العاملين الصابرين ...

* * *

(١) سورة الأنبياء آية ٣٩ ، ٤٠

(٢) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٣) سورة الإسراء آية ١٥ .

(٤) سورة غافر آية ١١ .

(٥) سورة المطففين آية ٢٩ ، ٣٠ .

(٦) سورة الزخرف آية ٧٧ .

« قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » ...

اللغة والإعراب : الضمير فى قوله تعالى : « قال : كم لبثتم » يرجع إلى الله تعالى ، أو إلى الملك المأمور بذلك ، فالقائل هو الله جل جلاله ، أو الملك المأمور بسؤالهم ، والسؤال تذكير لهم بما لبثوا وتقريع لهم وتوبيخ ، وذلك عند ما سألوا الرجوع إلى الدنيا بعد أن أخبروا باستحالة ذلك الرجوع ، وأنه غير كائن ، كما يفصح عنه قوله عز وجل : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » ، وقرىء : « قل » على أن الأمر للنبى – صلى الله عليه وسلم – والمعنى : قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمرا للملك بسؤالهم ، أو التقدير : قولوا كم لبثتم ، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد والمراد الجماعة ... « فى الأرض » المراد بالأرض : الأرض التى طلبوا الرجوع إليها أى : الحياة الدنيا ، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع مالبثوه فى الحياة الدنيا وفى القبور ، وقيل هو سؤال عن مدة لبثهم فى القبور خاصة ، لقوله : « فى الأرض » ولم يقل : على الأرض ، ورد هذا القول بمثل قوله عز وجل : « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ »(١) وقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ »(٢) .. وانتصاب « عدد سنين » على التمييز ، لما فى « كم » من الإبهام ، وعدد مضاف وسنين مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، ومن العرب من يعربها إعراب جمع التكسير ، فيخفضها وينونها « سنين » ، وقرىء « عدداً » بالتنوين ، وقيل فى إعرابه إنه مصدر

(١) سورة الأعراف آية ٩٥ (٢) سورة المؤمنون آية ٧٩ .

أقيم مقام الاسم فهو نعت مقدم على منعوته ، ولبثتم بمعنى : عددتم ، وسنين منصوب على الظرفية ، والمعنى كم عددتم فى الأرض سنين عداً ، وتجويز أن تكون « لبثتم » بمعنى عددتم بعيد ، ولذا فالأرجح على هذه القراءة أن تكون « سنين » بدلا من « عددا » ، و « عددا » : منصوب على التمييز .. « قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم » : استقصارا لمدة لبثهم بالنسبة إلى ماتحققوه من طول زمان خلودهم فى النار ، أو لما هم فيه من شدة الهول والعـــذاب ، أو لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر مامر عليه من أيام الدعة ، أو لأنهم كانوا فى سرور وأيام السرور قصار ، أو لأن المنقضى فى حكم مالم يكن ، والأول أرجح لمناسبته للسياق واقتضاء المقام وللتصريح بوصف يوم القيامة بالطول والامتداد بالنسبة لأيام الدنيا ، كما فى قوله عز وجل : « وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »[1] ، وقوله تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »[2] فقد ورد أن المراد بذلك يوم القيامة ، يجعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة ، ويخففه على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة ، فهو إما أن يكون استطالة له لشدته على الكافر ، وإما لأنه على الحقيقة كذلك والله يخففه على المؤمن ... وقد صدقهم الله تعالى فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا ، ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها ... « فاسأل العادين » أى : لانعرف من عدد تلك السنين إلا أن نستقله ، ونحسبه يوما أو بعض يوم لما دهمنا من العذاب ، ولطول تلك الأيام بالنسبة لأيام الدنيا فاسأل المتمكن من العد الذى يقدر أن يلقى إليه فكره ، وقيل : فسل الملائكة الذين يعدون أعمار العباد ، ويحصون أعمالهم ، وقرىء « العادين » بتخفيف الدال أى : الظلمة ، فإنهم يقولون كما نقول ، صار الأتباع يسمون الرؤساء بالعادين ، لظلمهم إياهم بإضلالهم ، وقرىء « العاديين »

---

(١) سورة الحج الآية ٤٧ (١) سورة المعارج الآيات ١ — ٤ .

بتشديد الياء جمع « عادى » نسبة إلى قوم عاد ، والمراد بهم : المعمرون ، لأن قوم عاد كانوا يعمرون كثيرا ، أى : فاسأل القـــدماء المعمرين فإنهم أيضا يستقصرون مدة لبثهم ، فكيف بمن دونهم ، وعن ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين .. « قال إن لبثتم إلا قليلا » قرىء « قال » على الخبر « و « قل » على الأمر ، وقد تقدم توجيه القراءتين ، و « إن » نافية بمعنى : ما ، و « قليلا » صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : ما لبثتم فى الأرض إلا لبثا قليلا أو زمنا قليلا ... « لو أنكم كنتم تعلمون » لو : شرطية وجوابها محذوف ثقة بدلالة السياق عليه ، أى : لو كنتم من أهل العلم ، أو لو كنتم تعلمون شيئا لعلمتم يومئذ قصر أيام الدنيا وقلة لبثكم فى الأرض كما علمتم اليوم ، ولعملتم بموجب ذلك ، ولم يصدر منكم ما أوجب خلودكم فى النـار ، وقولنا لكم « اخسأوا فيها ولا تكلمون » ، وقيل المعنى : لو كنتم تعلمون قلة لبثكم فى الدنيا بالنسبة للآخرة ما اغتررتم بها وعصيتم ، وكأن نفى العلم عنهم لعدم عملهم بموجبه ، ومن لم يعمل فهو والجاهل سواء ، وجوز البعض أن تكون « لو » للتمنى فلا تحتاج إلى جواب ... هذا وقال غير واحد من المفسرين : المراد سؤالهم عن مدة لبثهم فى القبور حيث إنهم كانوا يزعمون أنهم بعـــد الموت يصيرون ترابا ولا يقومون من قبورهم أبدا ، واستصوب بعضهم هذا لقوله تعالى : « فى الأرض » ولم يقل : على الأرض ، وقد ناقشنا هذا الاستصواب كما استصوبه بعضهم ، لأن قوله تبارك وتعالى بعده « وأنكم إلينا لا ترجعون » يقتضيه ، ولا أرى وجها لهذا الاستصواب ، لأن قوله عز وجل : « وأنكم إلينا لا ترجعون » لا يمنع من كون السؤال عما لبثوا فى الأرض أحياء معتقدين أنهم لا يبعثون بعد موتهم ، ويرجعون إلى ربهم ... « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » الهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام والمعنى : ألم تعلموا شيئا فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة ، فالاستفهام لإنكار أن يترتب هذا الحسبان على جهلهم ، وعدم علمهم بما لبثوا ، وما ينبغى أن يعملوا فى دنياهم ، حتى أنكروا البعث ، وانتصاب « عبثا » إما على الحال من

ضمير العظمة أى : أنما خلقناكم عابثين ، أو على أنه مفعول له أى : أفحسبتم أنما خلقناكم للعبث ، أو صفة لمصدر مقدر أى : أنما خلقناكم خلقا عبثا ، والعبث فى اللغة : اللعب واللهو ، يقال عبث يعبث عبثا فهو عابث أى : لاعب لاه ، والمراد به فى الآية ماخلا عن الفائدة مطلقا ، أو ماخلا من الفائدة المعتد بها ، و (ما) فى قوله (أنما خلقناكم) إما مصدرية أى: أفحسبتم أن خلقنا لكم حصل عبثا ، أو موصولة أى : أفحسبتم أن الذى خلقناكم له حدث منا وتم عبثا ، أو زائدة كافة لأن عن العمل ... (وأنكم إلينا لا ترجعون) الجملة من أن واسمها وخبرها معطوفة على (أنما خلقناكم) والمعنى : أفحسبتم أن خلقنا لكم عبثا وإهمالا كما خلقت البهائم ، ولا ثواب ولا عقـــاب ، وأنكم إلينا لاترجعون بالبعث والنشور ، فنجازيكم بأعمالكم ، ويجوز أن تكون معطوفة على (عبثا) والمعنى : أفحسبتم أنما خلقناكم للعبث ولعدم الرجوع، أو عابثين ومقدرين أنكم إلينا لا ترجعون ، وقرىء « ترجعون » بالبناء للمعلوم ، وفى الآية توبيخ لهم على تغافلهم ، وإشارة إلى أن الحكمة تقتضى تكليفهم وبعثهم للجزاء ... « فتعالى الله » أى تنزه عن أن يخلق شيئا عبثا ، استعظام له جل جلاله، ولشئونه التى يصرف عليها عباده جل وعلا ، من البدء والإعادة والعقاب والإثابة بموجب الحكمة البالغة ، أى : ارتفع سبحانه بذاته ، وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وعن خلو أفعاله من الحكم والمصالح الحميدة لأنه الحكيم . . . « الملك الحق » الملك : ملك الملوك له الملك ، وهو ملك يوم الدين ، ومالك الملك ، ومليك الخلق أى : ربهم ومالكهم ، قال تعالى : « مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . . »[1] وقال عز قائلا : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ »[2] وقال جلا وعلا : « مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ »[3] ، وملك الله تعالى وملكوته : سلطانه وعظمته

(١) سورة الفاتحة آية ٤

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦

(٣) سورة الناس آية ٢ ، ٣

والحق أى : الحقيق بالمالكية على الإطلاق إيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، إحياء وإماته ، عقابا وإثابة ، وكل ماسواه مملوك له ، مقهور تحت ملكوتيته ، فهو الملك الحق ، ويطلق الحق على نقيض الباطل ، وعلى الواجب الثابت، فهو الحق أى الثابت الذى لا يزول ولا يزول ملكه ، وهذا وإن كان أشهر إلا أن الأول أوفق بالمقام ... « لا إله إلا هو » لا رب سواه ، ولا خالق غيره ، فإن كل ماعداه عبيد له سبحانه وتعالى .. « رب العرش الكريم » العرش : جرم عظيم وراء عالم الأجسام والأجرام ، وهو أعظمها ، وقدجاء فىوصف عظمه ما يبهر العقول ، ولزم من كونه تعالى ربه كونه رب كل الأجسام والأجرام ، إذكيف يكون ربا للعرش ، ولا يكون إلها وربا لما هو دونه من المخلوقات ، ووصف العرش بالكريم لشرفه ، وكل ماشرف فى بابه وصف بالكرم ، كما فى قوله تعالى : « وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ »[1] ، وقوله عز وجل : « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً »[2] ، وقد شرف العرش بما أودع الله تعالى فيه من أسرار ، أو لنزول الرحمة والخير منه ، أو باعتبار من استوى عليه ، كما يقـــال : بيت كريم ، إذا كان ساكنوه كراما ، وقرىء « الكريم » بالرفع على أنه صفة للرب ، أو صفة للعرش على القطع ، وهذا أرجح، لأنه أوفق بقراءةالجمهور..

« ومن يدع مع الله إلها آخر » من : شرطية ، ويدع : فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف الواو ، ومعنى « يدع مع الله إلها آخر » يعبد آخر مع وجود الله تعالى إلها وتحقق هذا الوجود ، أو يعبد آخر مع عبادة الله سبحانه وتعالى وإقراره بألوهيته ، فإلها : حال لازمة من لفظ الجلالة وآخر : صفة لموصوف محذوف وقع مفعولا ليدعو والتقدير: ومن يدع شيئا آخرمعوجود الله إلها ، ويتحقق هذا فى الكافر إذا أفرد معبوده الباطل بالعبادة ، أوأشركه مع الله تعالى ، ويجوز إعراب إلها مفعولا ليدعو، وآخر صفة ذكرت للتصريح بألوهيته تعالى ، وللدلالة على الشريك فيها ، هذا هو المقصود ، وليس ذكرها

---

(١) سورة الدخان آية ٢٦ (٢) سورة الإسراء آية ٢٣

تأكيدا لما تدل عليه المعية، وإن جوز البعض ذلك ... « لا برهان له به » صفة لمفعول يدعو، وهي صفة لازمة جيء بها للتأكيد كما في قوله تعالى « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »(١) ، ومثله قوله تعالى : « سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا »(٢) والبرهان : الحجة الواضحة والدليل الساطع ، وليس المراد أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان أو ينزل به سلطان، وإنما المراد نفي البرهان وإنزال السلطان ، وإن لم يكن في نفس الأمر برهان ولا سلطان ، لا منزل ولا غير منزل ، وذلك تهكما بمن يدعى إلها مع الله ، فالصفة ـ كما قلت ـ صفة لازمة جيء بها للتأكيد والتهكم، وليست صفة مقيدة، تجوز أن يكون في الآلهة ما يمكن أن يقوم عليه برهان ، ويجوز أن يكون قوله « لا برهان له به » اعتراضا بين الشرط والجزاء جيء به للتأكيد كما في قولك : من أحسن إلى زيد ، لا أحق منه بالإحسان فالله تعالى مثيبه ، ومنهم من جوز أن يكون جواب الشرط قوله تعالى : « لا برهان له به » على حذف الفاء ، كما في قول الشاعر :

* من يفعل الحسنات الله يشكرها *

ويكون قوله تعالى : « فإنما حسابه عند ربه » تفريعا على الجملة وليس هو الجواب ، والحساب كناية عن المجازاة ، كأنه قيل : من يعبد إلها مع الله تعالى فالله سبحانه مجاز له على قدر مايستحق من عقاب وهو مبتدأ خبره « عند ربه » أي : حسابه كائن عند ربه . . « إنه لا يفلح الكافرون » الضمير ضمير الشأن، أي : إن الشأن لا يفلح الكافرون ، وقرىء « أنه » بفتح الهمزة على التعليل ، أو على جعل الحاصل من السبك خبر « حسابه » أي : حسابه عدم الفلاح ، ويكون الظرف « عند » المتعلق بمحذوف صفة للمبتدأ والمعنى : فإنما حسابه الكائن عند ربه أنه لا يفلح الكافرون ، وقرئ « يفلح » بفتح الياء واللام مضارع فلح بمعنى أفلح ...وقد روعي في عود الضمائر : (يدع . . حسابه . .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨ (٢) سورة آل عمران الآية ١٥١

ربه) لفظ « من » ، وروعى فى جمع « الكافرون » معناها ، والأصل : فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح هو ، أو فإنما حسابهم عند ربهم أنهم لا يفلحون ، فوضع الظاهر « الكافرون » موضع الضمير .. ولا يخفى مافى الآيات الكريمة من تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أمره عز وجل بالالتجاء إلى مغفرته ورحمته ، فختم السورة بتعليمه أن يدعو بالمغفرة والرحمة « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » أمره سبحانه وتعالى بالاستغفار والاسترحام لتقتدى به أمته ، وقيل أمره بالاستغفار والاسترحام لأمته ، والظاهر أن طلب كل من المغفرة والرحمة على وجه العموم له عليه الصلاة والسلام ولمتبعيه ، وفى تخصيص هذا الدعاء بالذكر مايدل على أهمية مافيه ، وينبىء بأن الله جل وعلا لا يغفر أن يشرك به ، كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »[1] ولقد ذكر عقب الآية السابقة ، وختمت به السورة الكريمة ، تعليما للأمة طريق الثناء والدعاء ، وتنبيها إلى عظم الشرك وخطره ، وتحذيرا منه ، إذ المؤمن عندما يدعو بالمغفرة والرحمة عقب تهديد المشركين وتوعدهم بالعقاب الشديد، وهو يعلم أن الشرك أكبر الكبائر ، وأن الله لا يغفره أبدا ، فهذا يعنى أنه ينبغى أن يظل بمعزل ومنأى عن كل أنواع الشرك ... اللهم جنبنا الشرك وأنواعه ، واغفر لنا يارب وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شىء وأنت خير الراحمين ...

الأسرار والمزايا البلاغية : الاستفهام فى قوله تعالى : « قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ » أريد به التقرير والتذكير بما لبثوا ، عندما سألوا الرجوع إلى الدنيا ، وذلك على سبيل التبكيت والتوبيخ ، وقد استقصر الكفرة مدة لبثهم فى الدنيا فأجابوا : « لبثنا يوما أو بعض يوم » ، وهذا الجواب ينبىء بقصر أيام

---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

الدنيا بالنسبة للآخرة ، ويشير أيضا إلى ما هم فيه من العذاب الشديد الذى أفقدهم التفكير ، ولذا قالوا : « فاسأل العادين » أى : سل من يقدر أن يلقى إليه فكره ويستطيع أن يستجمع ذاكرته ، فنحن قد ذهب العذاب بتفكيرنا وأفقدنا القدرة على الإدراك والعد ، وقد صدقهم الله عز وجل فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا ، ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها ، « إن لبثتم إلا قليلا » حيث قصر لبثهم على القلة قصرا حقيقيا ، وعلى الرغم من قلة لبثهم فإنهم لم يحسنوا استغلال حياتهم ، وغفلوا عن الحق ، وأعرضوا عن الإيمان والهدى ، ولما ذاقوا العذاب تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليغيروا منهاجهم ، ويستدركوا ما فاتهم ، ولات حين رجوع ... وفى قوله تعالى : « لو أنكم كنتم تعلمون » حذف مدخول « لو » ، لأنها لاتدخل إلا على الأفعال ، والأصل : لو كنتم كنتم تعلمون ، فحذف فعل الشرط « كان » ثم دخلت « أن » على الضمير فصار الكلام : لو أنكم كنتم تعلمون ، وتأكد بهذا الحذف امتناع كونهم من أهل العلم ، لأنه أبرز الكلام فى صورة ما قدم فيه المسند إليه على خبره الفعلى ، وهذا التقديم يفيد التأكيد ، فضلا عن وجود أن ، والمعنى : لو ثبت وتأكد كونكم من أهل العلم ، أو كونكم تعلمون شيئا ، لعلمتم يومئذ قصر أيام الدنيا ، كما علمتم اليوم ، ولعملتم بموجب ذلك العلم ، وما ندمتم الآن على مافاتكم فى الدنيا ، وتأكيد نفى العلم بذلك عنهم لعدم عملهم بموجبه ، ومن لم يعمل بموجب علمه فهو والجاهل سواء ، وهذا ينبىء بمدى غفلتهم وإعراضهم عن قبول الحق والهداية ، ولا يخفى عليك حذف كل من مفعول « تعلمون » وجواب الشرط ... والاستفهام فى قوله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون » للإنكار ، إنكار أن يترتب هذا الحسبان على جهلهم أى : ألم تعلموا شيئا فحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكرتم البعث ، فالإنكار للأمرين معا ، لعدم العلم وقد جاءهم الرسول ، ولذلك الحسبان ، أو بمعنى أدق ، لترتب الحسبان على عدم العلم الذى يرجع إلى عنادهم وغفلتهم عن الحق ، وعلى اعتبار أن « ما » كافة لأن عن العمل ، تكون « أنما » دالة على

القصر ، قصر خلقهم على العبث قصرا حقيقيا(١)... والفاء فى قوله : « فتعالى الله الملك الحق» تشعر بضرورة أن يبادر المؤمن بتنزيه الله عز وجل وتقديسه عقب سماعه بمثل هذه الآية الكريمة : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون » ... وفى قوله تعالى : « لا إله إلا هو رب العرش الكريم » قصرت صفة الألوهية على ضمير لفظ الجلالة قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وفى إسناد الكرم إلى الضمير العائد إلى العرش مجاز عقلى ، حيث وصف العرش بوصف صاحبه ، لشرفه بما أودع الله فيه من أسرار ، والأصل : العرش الكريم ربه، وقيل هو أسلوب كنائى ، كما يقال : بيت كريم كناية عن كرم صاحبه ، وقيل هو على تشبيه العرش لنزول الرحمة منه والبركات ، بشخص كريم ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو الكرم على سبيل الاستعارة المكنية، والأول أرجح وأظهر ... وفى قوله تعالى : «ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » حذف مفعول « يدع » وذلك على جعل « إلها » حال لازمة من لفظ الجلالة ، والتقدير : ومن يدع مع تحقق وجود الله إلهـــا شيئا آخر ، وهذا الحذف ينبىء بحقارة ذلك المدعو مع الله ، ويشعر بأنه لايستحق الذكر ، ولا ينبغى أن يكون ، فهو ليس بشىء ، قال تعالى : « أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ »(٢) أى : وما يتبع الذين يعبدون غير الله شركاء له على الحقيقة ، تعالى الله عن ذلك ، إنه مجرد الظن بأنها آلهة تشفع لهم ، وتقربهم إلى الله زلفى ،

---

(١) إفاده « أنما » للقصر بناء على رأى البعض ، والجمهور يرى أنها لاتفيد القصر .. ارجع إلى كتابنا علم المعانى ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) سورة يونس آية ٦٦ .

وهم واهمون فى هذا الظن ، مخطئون فى ذلك التقدير ، « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » يكذبون حيث يقدرون تقديرا باطلا ... وفى الآية وجه آخر من الإعراب وهو جعل « إلها » مفعول « يدع » و « آخر » صفته ، كما مر بك ، وتنكير « إلها » على هذا الوجه ينبىء بتعدد وتنوع الآلهة التى دعيت من دون الله ، وقوله : « لا برهان له به » إما صفة لازمة لمفعول « يدع » وإما جملة إعتراضية ، وعلى كلا الوجهين ، فإن الغرض من الجملة هو التوكيد ، والمبالغة فى الوعيد والزجر ؛ لأنه إذا كان هذا هو جزاء من عبد مالا دليل له عليه ، فما بالك بمن عبد مادل الدليل على خلافه ؟ ، والحساب فى قوله : « فإنما حسابه عند ربه » كناية عن المجازاة ، وفى ذكر الرب ، وقصر الحساب بمعنى المجازاة عليه قصرا حقيقيا تحقيقيا ، مايدل على شدة العقاب ، فحساب أولئك الكفرة الذين دعوا مع الله إلها آخر ، إنما هو عند ربهم الذى تكفلهم بالرعاية والتربية ، ، إنه ربهم وقد عبدوا غيره ، وحسابهم الآن مقصور عليه ، ولذا سيكون شديدا وعسيرا ... وفى قــــوله عز وجل : « إنه لا يفلح الكافرون » وضع الضمير موضع الاسم الظاهر فى أوله ، لأنه ضمير الشأن ، وذلك للإيضاح بعد الإبهام الذى يؤدى إلى تثبيت الحكم المذكور ، وترسيخه فى الأذهان ، كما وضع الظاهر موضع الضمير فى آخره ، إذ الأصل : لا يفلح هو ، وذلك تسجيلا عليهم ، وإشعارا بأنهم استحقوا عدم الفلاح بسبب هذا الكفر ، وقد فصلت تلك الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى ؛ لأنها بمثابة جواب لسؤال قد انبعث منها ، وكأن السامع عندما يسمع الجملة الأولى يسأل : وما نوع الحساب والجزاء الذى ينتظر أولئك الذين دعوا مع الله إلها آخر ، فيجاب : إنه لايفلح الكافرون ... ومن الدقائق اللطيفة ماتشعر به فى افتتاح هذه السورة الكريمة ، وفى اختتامها ، فقد افتتحت بتحقيق فلاح المؤمنين ، واختتمت بما يشعر بالانتهاء وهو عدم فلاح الكافرين ، وهذا مايسميه البلاغيون ببراعة الابتداء وبراعة الانتهاء ... وفى قوله تعالى : « وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » حذف متعلق « اغفر وارحم » ليدل على

العموم ، وأن طلب المغفرة والرحمة له صلى الله عليه وسلم ولأمته ، وقد مر بك السر البلاغي وراء إيثار كلمة « خير » بالتعبير دون كلمة « أرحم » فى قوله : « وأنت خير الراحمين » وفى تخصيص هذا الدعاء بالذكر فى ختام السورة الكريمة ، مايدل على أهمية مافيه ، وينبه المؤمن إلى ضرورة الحرص عليه ، والتضرع به إلى الله عز وجل ، ويشعر بخطر الشرك ، الذى بين عقابه فى الآية السابقة ، فهو أكبر الكبائر ، إنه الذنب الذى لا يغفر : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا »[1] ، فلكون الشرك لا يغفر ، عقب بطلب المغفرة والرحمة ليظل المؤمن فى معزل عنه ، وبمنأى عن أنواعه أيا كانت . . . اللهم جنبنا الشرك ، وأبعدنا عن أنواعه ، وارزقنا الإخلاص فى العبادة والعمل ، واغفر لنا وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شىء وأنت خير الراحمين . . .

معانى الآيات الكريمة : بعد أن بين الله عز وجل جزاء المؤمنين الذين صبروا على أذى الكفار وسخريتهم منهم واستهزائهم بهم فى الدنيا فلم يهنوا بل ثبتوا على اليقين ، وازدادوا إيمانا على إيمانهم ، ففازوا بالرضوان والنعيم ، بعد أن أبرزت الآيات ذلك ، تتجه إلى الكفرة ، فيسألهم الله عز وجل : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ ويقر الكفرة بقصر مالبثوا : لبثنا يوما أو بعض يوم ، هذا مبلغ علمنا ، فاسأل العادين من الحفظة الكرام ، أو من يقدر أن يلق إليه فكره ، ويستجمع رأيه ، أما نحن فقد دهمنا العذاب ، ولا نعرف من عدد تلك السنين إلا أن نستقله ونحسبه يوما أو بعض يوم ، ويصدقهم المولى عز وجل فى تقالهم لسنى لبثهم : « إن لبثتم إلا قليلا » فهلا اغتنمتم ذلك

---

(١) سورة النساء آية ١١٦ .

الزمن القليل ، وأحسنتم العمل ، ، ودخلتم فى زمرة المؤمنين لتفـــوزوا اليوم بما فازوا ؟ أم حسبتم أنمـا خلقنـــاكم عبثـا ، وأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ؟ كلا ، إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق لحكمة بالغة : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(١) لم يخلقهم عبثا ، ولم يتركهم سدى ، «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى»(٢) تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً لا إله إلا هو سبحانه ، رب العرش الكريم ، ورب الخلق أجمعين ، هو الملك الحق ، لا إله غيره ، ومن أشرك به ، ودعا غيره ، وعبد معبودات ما أنزل الله بها من سلطان ، فقـــد خسر خسرانا مبينا ، وسيحاسب حسابا عسيرا : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا »(٣) ولما كان حساب المشرك عسيراً : « إنما حسابه عند ربه ، ولن يفلح أبدا « إنه لا يفلح الكافرون ، وما ألطف ماافتتحت به السورة الكريمة ، وأدق ما اختتمت به ، فقد افتتحت بتحقيق فلاح المؤمنين، ثم اختتمت بتحقيق خسران الكفرة، والإخبار بعدم فلاحهم،ولما كان الشرك بالله أكبر الكبائر، وأخبرنا الله جل جلاله أنه لا يغفر أن يشرك به، فقد أعقب ذلك الوعيد بهذا الإرشاد، معلما نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو بالمغفرة والرحمة: «وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين» وفى الصحيحين أن أبا بكر رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » ... اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وارحمنا يارب برحمتك التى وسعت كل شىء ، ياخير الراحمين.

* * *

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ (٢) سورة القيامة آية ٣٦ .
(٣) سورة النساء آية ٤٨ .

خاتمة

تعالج هذه السورة الكريمة - سورة « المؤمنون » - قضية الإيمان بالله وتوحيده ، وقد بدأت - كما رأينا - بتقرير فلاح المؤمنين ، وإبراز صفاتهم التى استحقوا بها الفوز والفلاح ووراثة الفردوس ، ثم ثنت بتقرير دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، فعرضت لخلق الإنسان ، وأبرزت أطوار الحياة ، حيث تتجلى قدرة الله عز وجل ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وجلت الآيات الكريمة دلائل الإيمان فى الآفاق ، من خلق السموات وإنزال الماء ، وإسكانه فى الأرض ، وإنبات الزرع والنخيل والأعناب ، وخلق الأنعام ، وتسيير الفلك ، وبعد ذلك تعرض الآيات إلى حقيقة الإيمان كما عرضها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد خاتم الرسل والنبيين - صلى الله عليه وسلم - وتجلى شبهات المكذبين حول هذه الحقيقة ، واعتراضاتهم عليها ، ووقوفهم فى وجهها معاندين مكابرين « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . . « لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » وإن تعجب فعجب صنيع الكفرة ، ارتضوا للألوهية حجراً ، وأبوا النبوة بشراً .. ويستنصر الرسل ربهم « رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ » فيهلك المكذبين المعاندين ، وينجى المؤمنين الموحدين ، وينادى الله عز وجل رسله مقرراً تلك الحقيقة التى جاءوا بها « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » حقيقة واحدة نادى بها الرسل جميعاً « أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ »[1] .. « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ »[2] . . . « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

---

(١) سورة نوح آية ٣ .   (٢) سورة آل عمران آية ١٩ .

إبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »[١] فالأصل الذى جاء به الأنبياء واحد ، وهو توحيد الله عز وجل وترك عبادة الأوثان ، « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ » . . . الأصل هو الأمر بعبادة الإله الواحد الحق ، وإن اختلفت الفروع المؤدية إلى هذا الأصل فى كل رسالة . . . ثم يستطرد السياق إلى اختلاف الناس بعد الرسل فى تلك الحقيقة الواحدة التى لا تتعدد « فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورفضهم دعوته ، مستنكرا هذا الموقف الذى ليس له مبرر ، وتعرض الآيات إلى جملة من الدلائل والبراهين ، دلائل الإيمان ، وبراهين التوحيد ، « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ .. وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ .. وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. » ويعرض المعاندون عن تلك الدلائل ، كما عرضوا عن غيرها ، متمسكين بمقالة الآباء ، فتتناول الآيات فى حوار هادىء : « قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ؟ .. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ .. قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ؟ » ومن العجيب أنهم يسلمون بهذه التساؤلات لله تبارك وتعالى : « سَيَقُولُونَ لِلَّهِ » ثم يكفرون به ، وينكرون البعث . . . ويتوجه السياق بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمره أن يدعهم وشركهم وأن يدفع السيئة بالتى هى أحسن ، وأن يستعيذ بالله من همزات الشياطين ، فهؤلاء الكفرة سيظلون على كفرهم وعنادهم ، حتى يفاجئهم الموت ، وعندئذ يندمون ولات حين ندم ، سيخلدون فى جهنم ، وسيفوز المؤمنون اليوم ويجزون الجزاء الأوفى . . . وتختتم السورة الكريمة بتنزيه الله عز وجل : « فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ » وبنفى الفلاح عن الكافرين فى مقابل

(١) سورة الشورى آية ١٣ .

تقرير الفلاح فى أول السورة للمؤمنين : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » ثم بالتوجيه إلى الله عز وجل لطلب الرحمة والغفران : « وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » . . .

فجو السورة - كما نرى - هو جو التقرير والبيان ، والجدل الهادى والحوار الهادف ، وإثارة الفكر والوجدان ، للوصول إلى تلك الحقيقة ، حقيقة الإيمان بالله وحده ، فنى المطلع إبراز لصفات المؤمنين يعقبه عرض الدلائل ، دلائل الإيمان فى الأنفس ، وفى الآفاق ، فحوار بين رسل الله والكفرة ، لينتصر الحق فى كل قصة ، وفى أوسطها إبراز آخر لجملة من صفات المؤمنين : « إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . . » الآيات . . وحث على النظر والتأمل : « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ . . » الآيات . .

ويلتقى مطلع السورة الكريمة وختامها فى تقرير الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » . . . « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » وفى تقرير الخشوع فى الصلاة فى مطلعها : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » والتوجيه إلى الله تعالى بالخشوع فى ختامها : « وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » وبهذا يلتقى المطلع والختام فى تناسق تام وبراعة وإعجاز . . .

ومن الظواهر الأسلوبية الواضحة ، التى نجدها تتكرر فى السورة الكريمة : أسلوب الاستفهام ، الذى ينبه ويحث ، ويوقظ ويحرك ، ويدعو إلى التأمل والتدبر والنظر « أفلا تتقون . . أفلا تعقلون . . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . . أنؤمن لبشرين مثلنا . . أيحسبون أنما نمدهم به

من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات .. أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين .. أم لم يعرفوا رسولهم ... أم يقولون به جنة .. أم تسألهم خرجا .. أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون .. قل لمن الأرض ومن فيها .. قل من رب السموات السبع .. قل من بيده ملكوت كل شىء .. فأنى تسحرون .. ألم تكن آياتى تتلى عليكم .. كم لبثتم فى الأرض عدد سنين .. أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ... » فتلك الاستفهامات وإن أريد بها معان بلاغية ، كالإنكار والتعجب والتقرير ، فإن محض المعنى هو التنبيه والإيقاظ وتحريك الفكر وإثارة الذهن ، حتى يرجع المخاطب إلى نفسه ، فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، فيكف عن العناد والمكابرة(١) .

ومنها أسلوب القصر الذى يحقق المبالغة ، ويلقى المعنى أمام المخاطب مؤكدا جليا حتى يرى فيه رأيه : « مالكم من إله غيره .. ماهذا إلا بشر مثلكم .. إن هو إلا رجل به جنة . إن هى إلا حياتنا الدنيا .. إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا .. إن هذا إلا أساطير الأولين .. إن لبثتم إلا قليلا .. فإنما حسابه عند ربه .. أولئك هم الوارثون .. فأولئك هم المفلحون .. وقومهما لنا عابدون .. فكنتم بها تكذبون .. وكنتم منهم تضحكون .. أنهم هم الفائزون .. إليه تحشرون .. » ولا يخفى عليك تنوع طرق القصر فى الآيات ، وما يكمن وراءه من لطائف وأسرار ، فعندما أريد التعظيم وإبراز منزلة المخاطبين ومكانتهم جاء القصر بتعريف الطرفين وتوسط ضمير الفصل : « أولئك هم الوارثون » .. ولما كان الحوار عنيفا والجدل حادا والنقاش محتدما شديدا ، جاء القصر بالنفى والاستثناء « مالكم من إله غيره .. ماهذا إلا بشر .. إن هو إلا رجل به جنة .. » فأنت تعلم أن طريق « النفى والاستثناء » .. يستعمل فى المعانى القوية ، والنبرات الحادة والأمور الغريبة المنكرة التى يجهلها المخاطب ، أو التى تنزل تلك المنزلة .. فلما هدأ

---

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ص ١٥١ .

الأسلوب ، وانتهى الجدل ، فى ختام السورة الكريمة ، بعد أن صرح السياق بندم الكفرة وتحسرهم يوم القيامة ، جاء القصر بإنما « فإنما حسابه عند ربه » فهى أداة هادئة يلائمها الحوار الهادىء ، والأسلوب الواضح المعلوم ، الخالى من الإنكار ، أو المنزل تلك المنزلة ، ولذا لم تستخدم إنما فى وسط السورة ، عندما كان الحوار عنيفا والجدال حادا ، واستعملت مرة واحدة ، وفى ختام السورة ، عندما هدأ الحوار ، وانتهى الجدال ، وندم الكفرة ، وبدا تحسرهم..

ومنها أسلوب النداء والأمر والنهى : « يا قوم اعبدوا الله . . تربصوا به . . رب انصرنى . . أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا . . فاسلك فيها . . ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا . . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا . . يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . . وأنا ربكم فاتقون . . فذرهم فى غمرتهم . . لا تجأروا اليوم .. رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين . . ادفع بالتى هى أحسن السيئة . . قال رب ارجعون . . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون .. قال اخسأوا فيها ولا تكلمون .. فاسأل العادين .. وقل رب اغفر وارحم .. » وأسلوب الأمر أو النهى فى تلك الآيات الكريمة ، تراه حينا على حقيقته ، وحينا أريد به معنى بلاغى ، كالحث على الفعل ، والدعاء ، والوعيد والتهديد ، والسخرية والتهكم ، والإهانة والإذلال ، وقد تقدم فى معظمها النداء على الأمر أو النهى ، والنداء إيقاظ وتنبيه ، فعندما يتلوه الأمر أو النهى يقع فى النفس موقعه ، ويحقق ماترمى إليه الآيات الكريمة ، حيث جاء أسلوب الأمر أو النهى والنفوس مهيأة يقظة ، قد انتبهت للنداء ..

ومنها تكرار اسم الإشارة الموضوع للبعيد : « أولئك هم الوارثون .. أولئك يسارعون فى الخيرات.. فأولئك هم المفلحون .. فأولئك الذين خسروا أنفسهم .. فمن ابتغى وراء ذلك .. ثم إنكم بعد ذلك .. إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين .. ولهم أعمال من دون ذلك . » والموضوع للقريب : « ما هذا إلا بشر مثلكم .. إن هذه أمتكم أمة واحدة .. بل هم فى غمرة من هذا .. لقد

وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هـــذا إلا أساطير الأولين .. » ولا يخفى عليك ماوراء التعبير بتلك الأسماء من تصوير وتجسيد للمعنى ، ومن مزايا بلاغية قد وقفت عليها فى مواطنها ..

ومنها تكرار الاسم الموصول فى أول السورة : « الذين هم فى صلاتهم .. الذين هم عن اللغو .. الآيات ، وفى أوسطها : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه .. ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا .. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا .. إن الذين هم من خشية ربهم .. والذين هم .. الآيات .. وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة .. وهو الذى أنشأ لكم السمع .. وهو الذى ذرأكم وهو الذى يحيي ويميت .. ادفع بالتى هى أحسن السيئة .. » وقد كرر الاسم الموصول فى تلك المواطن لإبراز المعانى التى تحملها جملة الصلة فهى تكشف عن صفات أولئك المؤمنين التى استحقوا بها الفوز والفلاح ، وتجلى صفات هؤلاء المعاندين من كفر وظلم وتكذيب وانتفاء الإيمان ، فقد استحقوا من أجلها العقاب والتعذيب ، وتظهر قدرة الله عز وجل أمام أولئك المعاندين ، لعلهم يتأملون ويتدبرون ، فيقلعون عما هم فيه من كفر وضلال ، وعناد ومكابرة ، ويقبلون على تحقيق الإيمان ، وإعلان الطاعة لله ورسوله ..

هذا والسورة الكريمة مليئة بالصور البيانية ، والمزايا البلاغية ، التى وقفت عليها فى مواطنها ، فعد إليها ليتبين لك كيف أبرزت تلك الصور : المقاصد والأهداف السامية ، التى تقصد إليها الآيات الكريمة ، وترمى إلى تحقيقها ..

ومما هو جدير بالتسجيل والملاحظة أنك ترى الأسلوب يتلاءم تلاؤما تاما مع ما تهدف إليه السورة ، حيث يتنوع بين الخبر والإنشاء ، فتجده خبريا محضا فى الآيات التى تقرر الحقائق ، وتبرز الصفات ، وتظهر الدلائل ، وخبريا ممتزجا بالإنشاء فى الآيات التى تصور الحوار والمجادلة ، ففى مطلع السورة

تقرير لفلاح المؤمنين، وإبراز لصفاتهم ، وإظهار لدلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، وهنا تجد الأسلوب خبريا محضا ، يقرر هذه الحقائق ، ويثبت تلك الدلائل ، ويجلى صفات المؤمنين ، وتستطيع أن تقرأ هذا من أول السورة الكريمة ، وحتى الآية ٢٢ .. وعندما انتقل السياق إلى قصص الأنبياء ، ظهر الأسلوب الإنشائى الذى يلائم الحوار والجدال بين الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين أقوامهم .. ياقوم اعبدوا الله .. أفلا تتقون .. فتربصوا به حتى حين .. ويعود الأسلوب خبريا محضا فى وسط السورة عندما أخذ السياق فى إبراز جملة أخرى من صفات أولئك المؤمنين : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم .. الآيات » .

واقرأ ما تنطق به الآيات الكريمة عن البعث فى أول السورة : « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ، وما تنطق به على لسان الكفرة فى وسطها : « أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما ؟ أإنا لمبعوثون ؟ » تجد الأول إخبارا عن وقوع البعث بعد الموت ، والثانى إنكارا لوقوعه ، ومرد ذلك إلى أن الأسلوب فى مطلع السورة ، يقرر ويخبر بتلك الحقائق الثابتة ، التى أشرنا إليها ، فالملائم هو الإخبار ، وهنا على لسان الكفرة الأسلوب أسلوب حوار ونقاش وجدال ، وهذا يلائمه التساؤل لا الإخبار . . .

ويلتقى — كما أوضحت — مطلع السورة وختامها فى تقرير أمرين :

الأول : فلاح المؤمنين فى المطلع ، وخسران الكفرة فى الختام « قد أفلح المؤمنون . . إنه لا يفلح الكافرون » وبين المطلع والختام ، عرض لصفات المؤمنين ، وإبراز لدلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، وحوار بين رسل الله عليهم الصلاة والسلام وبين أقوامهم حول هذه القضية ، قضية الإيمان والتوحيد ، وتجلية لقدرة الله عزوجل ، وتقرير الكفرة أو إقرارهم بأن الأمر كله لله ، وإظهار لما أعده الله من الجزاء الأوفى للمؤمنين ، ومن عقاب شديد للكفرة المعاندين ، يوم لا تنفع أنساب ، ولا يغنى مال ولا بنون إلا من أتى الله

بقلب سليم ، ثم إعلان أن الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقهم لحكمة أرادها « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »[1] وكان ختام السورة الكريمة بتحقيق خسران الكفرة ، يشير إلى أن من لم يتأمل ويتدبر فينتفع بما قرر وأبرز ووضح ، فقد وجب الآن أن يحقق خسرانه ، وأن يقرر بواره وعدم فلاحه ..

الثانى : تقرير الخشوع فى الصلاة فى المطلع ، والتوجيه إلى الله تعالى بالدعاء فى خشوع فى الختام : « الذين هم فى صلاتهم خاشعون .. وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » ، وهذا يومىء إلى ضرورة الامتثال والخضوع التام لأوامر الله جل وعلا ، وينبىء بأن من تأمل وتدبر ما جلته السورة الكريمة ، وجب عليه أن يخضع لله ، وأن تقشعر جلوده ، وتلين جوارحه ، ويخشع قلبه ، فيبتهل إلى الله تعالى فى ضراعة : « رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » ..

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا فهما صحيحا لكتابه الكريم ، وتدبرا واعيا ، وتأملا دقيقا ، وعملا يرضاه ، وأن يجنبنا الزلل ، ويلهمنا الرشد والصواب والتوفيق والسداد ، إنه سميع قريب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .. وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

أهم المراجـع

١ - الإتقان فى علوم القرآن . للسيوطى .
٢ - إعجاز القرآن . للباقلانى .
٣ - الأم للإمام الشافعى .
٤ - أمالى المرتضى ، للشريف المرتضى .
٥ - البحر المحيط . لأبى حيان .
٦ - البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى .
٧ - التصوير الفنى فى القرآن ، لسيد قطب .
٨ - تفسير أبى السعود .
٩ - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير .
١٠ - تفسير جزء تبارك ، للشيخ عبد القادر المغربى .
١١ - التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازى .
١٢ - تفسير الكشاف ، للزمخشرى .
١٣ - تلخيص البيان فى مجازات القرآن ، للشريف الرضى .
١٤ - تنزيه القرآن عن المطاعن ، للقاضى عبد الجبار .
١٥ - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، للرمانى والخطابى والجرجانى .
١٦ - جامع البيان عن تأويل القرآن ، للطبرى .
١٧ - الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى .
١٨ - الجمان فى تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا .
١٩ - روح المعانى ، للألوسى .
٢٠ - السيرة النبوية ، لابن هشام .
٢١ - صحيح البخارى .
٢٢ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى .

٢٣ ـ فتح القدير ، للشوكانى .
٢٤ ـ فقه السنة ، للسيد سابق .
٢٥ ـ الفوائد المشوق لعلوم القرآن وعلم البيان ، لابن القيم .
٢٦ ـ فى ظلال القرآن ، لسيد قطب .
٢٧ ـ القاموس المحيط ، للفيروزا بادى .
٢٨ ـ لسان العرب ، لابن منظور .
٢٩ ـ متشابه القرآن ، للقاضى عبد الجبار .
٣٠ ـ المجازات النبوية ، للشريف الرضى .
٣١ ـ مجاز القرآن ، لأبى عبيدة .
٣٢ ـ مشاهد القيامة فى القرآن ، لسيد قطب .
٣٣ ـ معانى القرآن ، للفراء .
٣٤ ـ من أسرار التعبير القرآنى ، لمحمد أبو موسى .
٣٥ ـ النبأ العظيم ، لمحمد عبدالله دراز .

استدراكات

الصفحة	سطر	الخطأ	صوابه
٤	١	بيده	بيده
٤	١١	الأويل	التأويل
٣٢	٧	الأوصا	الأوصاف
٣١	١٠	أنشانا	أنشأنا
٣١	١٩	وتميز	وتمييز
٣٢	٢	إذ نِي	إِإذ نِي
٤٠	١٠	يبَاقاً	طِبَاقاً
٤٣	١٣	وفيل	وقيل
٥١	٩	كُلٍّ	كلٍّ
٦٢	٥	مبْعَثَ	نَبعَثَ
٧٠	٨	ربْوَةٍ	رَبْوَةٍ
٧٣	٩	قلتقم	تلتقم
٧٦	٨	الملين	المعين
٧٧	٧	بتفنية	بتثنية
٩٧	٢	قَبْلَكَ	قَبْلَكَ
١١٠	١٢	عَمُّهُمْ	عَمَّهُمْ
١١٥	٥	بكَ	بِكَ
١١٥	٣	نرِ بكَ	بُرِيكَ
١١٩	١٠	وقبل	وقيل
١٢٩	١٣	تـكذبـ ن	تـكذبون
١٤٤	١٢	أبفسهم	أنفسهم
١٤٤	٢٣	تغلى	تقلى

الصفحة	سطر	الخطأ	صوابه
١٤٨	٢٢	مردّ	مردٍّ
١٥٠	١٦	فرزا	فوزا
١٥١	٤	يِدْعُ	يَدْعُ
١٥٤	١ من الهامش	اية	آية
١٥٩	١ من الهامش	إفاده	إفادة
١٦٠	٢٤	وراعة	وبراعة
١٦٠	٢١	افنتاح	افتتاح

رقم الإيداع ٥٨٩٣ / ١٩٨٨